

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00991 5939

[Illegible text on a label at the bottom of the spine]

02-B 6179

POST 18-12-02





70

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل مسألة من المسائل التي اجملتها في هذه الاسطر القليلة يصح ان تكون موضوعاً لكتاب على حدة . وقد تعمدت الاختصار فيها حتى ترتبط تلك المسائل ببعضها كأنها حلقات سلسلة واحدة . وغاية ما اريد هو ان استلفت الذهن الى موضوع قل عدد المفكرين فيه لا ان اضع كتاباً يوفي الكلام في شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانساني . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونمت نباتها في اذهان اولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتنافها والانتفاع بها

ويرى المطلع على ما اكتبه اني لست بمن يطمع في تحقيق آماله في وقت قريب لان تحويل النفوس الى وجهة الكمال في شؤونها مما لا يسهل تحقيقه وانما يظهر اثر العاملين فيه ببطء شديد في اثناء حركته

HQ

1793

Q 382

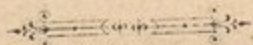
1899

تحرير المرأة

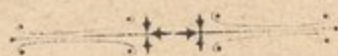
تأليف

فتيمم إمام

المستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية



حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف



ملزم الطبع

محمد علي كامل

صاحب

مكتبة الزقني

ومطبعها

{ بشارع عبد العزيز بالقاهرة }

سنة ١٣١٦ - ١٨٩٩

فاتحة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله (وبعد) فان البحث فيما
عليه نساؤنا الآن من صفات و اخلاق و عوائد ما يجب أن يكنّ عليه
من ذلك هو من أوجب الواجبات على كل من يحس حقيقة بالفرق
بين العائلة عندنا وعند غيرنا أو بالفرق بين العدم والوجود ويود
أن يكون عضواً من جسم امة تحيا لانها تعمل عمل الاحياء وترتقي
لانها تفعل فعل المرتقين

ولو كانت معرفة أسباب تهدم بناء عائلتنا - أو أمتنا - والوقوف
على طرق اعادته بناء عالياً ثابتاً مما يتعين على ذلك العضو الذي يجب
أن يكون في بلاده انساناً حياراقياً فاطلاعه على (تحرير المرأة) الذي
انشره اليوم يفى ولاشك بجل حاجته

محمد علي كامل

الخفية . وكل تغيير يحدث في امة من الامم وتبدو ثمرته في احوالها فهو
 ليس بالامر البسيط وانما هو مركب من ضروب من التغيير كثيرة تحصل
 بالتدرج في نفس كل واحد شيئاً فشيئاً ثم تسري من الافراد الى مجموع
 الامة فيظهر التغيير في حال ذلك المجموع نشأة اخرى للامة

وما نحن فيه اليوم ليس في الطاقة البشرية تغييره في الحال . وليس
 من العار علينا اننا وجدنا في مثل هذه الحالة لان كل عصر لا يسأل الا
 عن عمله . وانما العار ان نطن في انفسنا الكمال وننكر نقائصنا وندعي
 ان عوائدنا هي احسن العوائد في كل زمان ومكان . وان نعاند الحق
 وهو واحد لا يحتاج في تقريره الى تصديق منا به وكل ما نقوله او نفعله
 لانكاره لا يؤثر فيه بشيء وانما يؤثر فينا اثر الباطل في اهله ويقوم حجاً بآبائنا
 بيننا وبين اصلاح انفسنا اذ لا يمكن لامة ان تقوم باصلاح ما الا اذا
 شعرت شعوراً حقيقياً بالحاجة اليه ثم بالوسائل الموصلة له

لا اظن انه يوجد واحد من المصريين المتعلمين يشك في ان امته
 في احتياج شديد الى اصلاح شأنها . فهو لاء المتعلمون الذين اخاطبهم
 اليوم اقول ان عليهم تبعة ما نألم له في عصرنا هذا . ولا يليق بمعارفهم
 ولا بعزائمهم ان يسجلوا على انفسهم وعلى امتهم العجز واليأس والقنوط .
 فان ذلك صورة من صور الكسل او مظهر من مظاهر الجبن او حال
 من احوال من لا ثقة له بنفسه ولا باهله ولا بملته ولا بشرعه ولا باله
 واراهم بهذا يستسلمون الى تيارات الحوادث نتصرف فيهم كما نتصرف

في الجماد والنبات وتقدف بهم الى حيث يحبون اولا يحبون
✕ قد طرقت باباً من ابواب الاصلاح في امتنا والتمست وجهاً من
وجوهه في قسم من افراد الامة له الاثر العظيم في مجموعها واتيت في
ذلك بما اظنه صواباً . فان اخطأت فلي من حسن النية ما ارجو معه
غفران سيئة خطائي . وان اصبت كما اظن وجب على اوئلك المتعلمين
ان يعملوا على نشر ما اودعته في هذه الورقات وتأيدته بالقبول والعمل .

تمهيد

✽ حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية ✽

(تابعة لحالة الآداب في الامة)

اني ادعو كل محب للحقيقة ان يبحث معي في حالة النساء المصريات وانا على يقين من انه يصل وحده الى النتيجة التي وصلت اليها وهي ضرورة الاصلاح فيها . هذه الحقيقة التي انشرها اليوم شغلت فكري مدة طويلة كنت في خلالها اقلبها وامتنعها واملها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر مني وزاحت غيرها وتعلبت عليه وصارت تشغلي بورودها وتنهني الى مزاياها وتذكرني بالحاجة اليها فرأيت ان لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ومن احكم الاشياء التي يدور عليها تقدم النوع الانساني ويؤكد حسن مستقبله هذه القوة الغربية التي تدفع الانسان الى نشر كل فكرة علمية او ادبية متى وصلت الى غاية نموها الطبيعي في عقله واعتقد انها تساعد على تقدم ابناء جنسه ولو تيقن حصول الضرر لشخصه من نشرها . تلك قوة يدرك سلطانها من وجد في نفسه شيئاً منها . يشعر

intelligent pointer
نفسه

انه ان لم يسابقها الى ما تندفع اليه ولم يستنجد ببقية قواه لمعاونتها على استكمال ما تهيات له غالبته ان غالبها وقاومته ان قاومها وقهرته ان عمل في قهرها وظهرت في غير ما يجب من مظاهرها كأنها الغاز المحبوس لا يكتفم بالضغط ولكن الضغط يحدث فيه فرقة قد تأتي على هلاك ما حواه والبراهين على ذلك كثيرة في الماضي فان تاريخ الأمم مملوء بالمناقشات والجدل والجلاد والحروب التي قامت في سبيل استعلاء فكر على فكر ومذهب على مذهب وكانت الغلبة تارة للحق وأخرى للباطل وكانت الأمم الاسلامية على هذه الحال في القرون الأولى والوسطى . ولم يزل الأمر على ذلك او يزيد في البلاد الغربية التي يصح ان يقال فيها ان حياتها جهاد مستمر بين الحق والباطل والخطأ والصواب : جهاد داخلي بين افراد الامة في جميع فروع المعارف والفنون والصنائع . وجهاد خارجي بين الأمم بعضها مع بعض . خصوصاً في هذا القرن الذي الفت فيه الاختراعات الحديثة المسافات والابعاد وهدمت الحدود الفاصلة والاسوار المانعة حتى ان الاشخاص الذين ساحوا في جميع انحاء الارض يعدون بالألوف . واذا ألف رجل من مشاهيرهم كتاباً ترجم في اثناء طبعه وظهر في خمس او ست لغات في آن واحد ! ولم يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاككتنا . فقد اهملنا خدمة عقولنا حتى اصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده اهل الوقت

حديثاً غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الأولى او قضت به
المصالح في هذه الازمنة

وكثيراً ما يكتفي الكسول وضعيف القوة في الجدل بان يقذف
بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد ان يدفعه فيقول تلك بدعة في الاسلام .
وما يرمي بهذه الكلمة الا حب التخلص من مشقة الفهم او الخروج من
عناء العمل في البحث او الاجراء : كأن الله خلق المسلمين من طينة
خاصة بهم واقالمهم من احكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها
النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

سيقول قوم ان ما نشره اليوم بدعة . فاقول نعم ايتت بدعة ولكنها
ليست في الاسلام . بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب
الكمال فيها .

لم يعتقد المسلم ان عوائده لا تتغير ولا تبدل وانه يلزمه ان يحافظ
عليها الى الابد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد في عمله مع انه هو وعوائده
جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل في كل ان ؟ أيقدر
المسلم على مخالفة سنة الله في خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والنقدم
والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ أليست العادة عبارة عن
اصطلاح امة على سلوك طريق خاصة في معيشتهم ومعاملاتهم حسبما
يناسب الزمان والمكان ؟ من ذا الذي يمكنه ان يتصور ان العوائد
لا تتغير بعد ان يعلم انها ثمرة من ثمرات عقل الانسان وان عقل الانسان

يختلف باختلاف الاماكن والازمان؟ المسلمون منتشرون في اطراف الارض . فهل هم انفسهم متحدون في العادات وطرق المعاش؟ من ذا الذي يمكنه ان يدعي ان ما يستحسنه عقل السوداني يستحسنه عقل التركي او الصيني او الهندي . او ان عادة من عادات البدوي توافق اهل الحضرة . او يزعم ان عوائد امة من الامم مهما كانت بقيت جميعها على ما كانت عليه من عهد نشأتها بدون تغيير؟

والحقيقة ان لكل امة في كل مدة من الزمن عوائد وآداباً خاصة بها موافقة لحالتها العقلية . وان تلك العوائد والآداب تتغير دائماً تغيراً غير محسوس تحت سلطان الاقليم والوراثة والمخالطات والاختراعات العلمية والمذاهب الادبية والعقائد الدينية والنظامات السياسية وغير ذلك . وان كل حركة من حركات العقل نحو التقدم يتبعها حتماً اثر يناسبها في العادات والآداب . وعلى ذلك يلزم ان يكون بين عوائد السوداني والتركي مثلاً من الاختلاف بقدر ما يوجد بين مرتبتهما في العقل . وهو الامر المشهور الذي لا ريبه فيه . وعلى هذه النسبة يكون الفرق بين المصري والاوروبي

ولا يمكن ان يتصور احد ان العادات التي هي عبارة عن طريق سلوك الانسان في نفسه ومع عائلته ومواطنيه وابناء جنسه تكون في امة جاهلة او متوحشة مثل ما تكون في امة متمدنة لان سلوك كل فرد منها انما يكون على ما يناسب مداركه ودرجة تربيته

ولهذا الارتباط التام بين عادات كل امة ومنزلتها من المعارف
 والمدنية نرى ان سلطان العادة انفذ حكماً فيها من كل سلطان وهي
 اشد شوئونها لصوقاً بها وابعدها عن التغيير ولا حول للامة عن طاعتها
 الا اذا تحولت نفوس الامة وارتفعت او انحطت عن درجتها في العقل
 ولهذا نرى انها تغلب دائماً على غيرها من العوامل والمؤثرات حتى على
 الشرائع • ويؤيد ذلك ما نشاهده كل يوم في بلادنا من ان القوانين
 واللوائح التي توضع لاصلاح حال الامة تنقلب في الحال الى آلة جديدة
 للفساد • وليس هذا بغريب فقد تغلب العادات على الدين نفسه
 ففسده وتمسخه بحيث ينكره كل من عرفه

• وهذا هو الاصل فيما نشهده ويؤيده الاختبار التاريخي من
 التلازم بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة وتوحشها وبين ارتقاء
 المرأة وتقدم الامة ومدنيتهما • فقد علمنا ان في ابتداء تكون الجمعيات
 الانسانية كانت حالة المرأة لا تختلف عن حالة الرقيق في شيء وكانت
 واقعة عند الرومان واليونان مثلاً تحت سلطة ايها ثم زوجها ثم من بعده
 اكبر اولادها • وكان لرئيس العائلة عليها حق الملكية المطلقة فيتصرف
 فيها بالبيع والهبة والموت متى شاء ويرثها من بعده ورثته بما عليها من
 الحقوق المخولة للمالكها • وكان من المباح عند العرب قبل الاسلام ان
 يقتل الاباء بناتهم وان يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا
 عدد محدود • ولا تزال هذه السلطة الان سائدة عند قبائل افريقيا
 تحرير المرأة

وامريكا المتوحشة . وبعض الامم الاسيوية يعتقد ان المرأة ليس لها روح خالدة وانها لا ينبغي ان تعيش بعد زوجها . ومنهم من يقدمها الى ضيفه اكراماً له كما يقدم له احسن متاع يمتلكه

كل هذا يشاهد في الجمعيات الناشئة التي لم تقم على نظمات عمومية بل كل ما فيها يقوم بروابط العائلة والقبيلة والقوة هي القانون الوحيد الذي تعرفه . وهكذا الحال الآن في البلاد التي تدار بحكومة استبدادية لانها تحكم كذلك بقانون القوة

اما في البلاد التي ارتقت الى درجة عظيمة من التمدن فانا نرى النساء اخذن يرتفعن شيئاً فشيئاً من الانحطاط السابق وصرن يقطعن المسافات التي كانت تبعدهن عن الرجال : هذه تحبو وتلك تخطو وهذه تمشي وتلك تعدو كل ذلك بحسب حال الجمعية التي تنسب اليها ودرجة المدنية فيها . فالمرأة الامريكية في اول صف ثم ثلونها الانجليزية وتأتي بعدها الالمانية وتليها الفرنسية ثم النمساوية ثم التليانية ثم الروسية الخ . كما نفوس شعرت انها حقيقة بالاستقلال فهي تبحث عن الوسائل لنيله . وانها جديرة بالحرية فهي تسعى للوصول اليها . وانها من نوع الانسان فهي تطالب بكل حق للانسان

والغربي الذي يجب ان ينسب كل شيء حسن الى دينه يعتقد ان المرأة الغربية ترقى لان دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها . ولكن هذا الاعتقاد باطل . فان الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل

حرية المرأة ولم يبين حقوقها باحكام خاصة او عامة . ولم يرسم للناس في هذا الموضوع مبادئ يهتدون بها . وقد اقام هذا الدين في كل امة دخل فيها بدون ان يترك اثرًا محسوسًا في الاخلاق من هذه الجهة بل تشكل نفسه بالشكل الذي افادته اياه اخلاق الامم وعاداتها . ولو كان لدين ما سلطة وتأثير على العوائد لكانت المرأة المسلمة اليوم في

مقدمة نساء الارض

سبق الشرع الاسلامي كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة للرجل فاعلن حريتها واستقلالها يوم كانت في حضيض الانحطاط عند جميع الامم وخولها كل حقوق الانسان واعتبر لها كفاءة شرعية لا تنقص عن كفاءة الرجل في جميع الاحوال المدنية من بيع وشراء وهبة ووصية من غير ان يتوقف تصرفها على اذن ابيها او زوجها . وهذه المزايا التي لم تصل الى اكتسابها حتى الآن بعض النساء الغربيات كلها تشهد على ان من اصول الشريعة السمحاء احترام المرأة والتسوية بينها وبين الرجل . بل ان شريعتنا بالغت في الرفق بالمرأة فوضعت عنها احمال المعيشة ولم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الاولاد خلافاً لبعض الشرائع الغربية التي سوت بين الرجل والمرأة في الواجبات فقط وميزت الرجل في الحقوق

والميل الى تسوية المرأة بالرجل في الحقوق ظاهر في الشريعة الاسلامية حتى في مسألة التحلل من عقدة الزواج فقد جعلت لها في

ذلك طرقاً جديدة بالاعتبار سيأتي الكلام عنها خلافاً لما يتوهمه الغربيون
ويظنه بعض المسلمين

ولم أرَ إلاّ مسألة واحدة ميز الشرع فيها الرجال على النساء وهي
تعدد الزوجات . والسبب في ذلك واضح يتعلق بمسئلة النسب التي لا
يقوم للزوج حياة بدونها وسياتي الكلام عليها ايضاً فيما يلي . وبالجملة
فليس في احكام الديانة الاسلامية ولا فيما ترمي اليه من مقاصدها ما
يمكن ان ينسب اليه انحطاط المرأة المسلمة . بل الامر بالعكس فانها
اكتسبت مقاماً رفيعاً في الهيئة الاجتماعية

لكن وآ اسفاه قد تغلبت على هذا الدين الجميل اخلاق سيئة ورثناها
عن الامم التي انتشر فيها الاسلام ودخلت فيه حاملة لما كانت عليه من
عوائد واوهام ولم يكن العرفان قد بلغ بتلك الامم حداً يصل بالمرأة الى
المقام الذي احلتها الشريعة فيه . وكان اكبر عامل في استمرار هذه
الاخلاق توالي الحكومات الاستبدادية علينا

تجردت الجمعيات الاسلامية على اختلاف الأزمان والاماكن من
النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم وتخول للمحكومين
مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة
والنظام . بل اخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً فكان لسلطانهم
واعوانه سلطة مطلقة فحكموا كيف شاؤوا بلا قيد ولا استشارة ولا
مراقبة واداروا مصالح الرعية بدون ان يكون لها صوت فيها

نعم كان الحاكم صغيراً او كبيراً ملزماً باتباع العدل واجتناب الظلم
 لكن من المجرب ان السلطة الغير المحدودة تغري بسوء الاستعمال اذا لم
 تجد حداً تقف امامه ورأياً يناقشها وهيئة تراقبها . ولهذا مضت القرون
 على الامم الاسلامية وهي تحت حكم الاستبداد المطلق واساءة حكامها
 في التصرف وبالغوا في اتباع اهوائهم واللعب بشؤون الرعاية . بل لعبوا
 بالدين نفسه في اغلب الأزمنة . ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يكاد
 يذكر بالنسبة الى غالبهم

اذا اغلب الاستبداد على أمة لم يقف اثره في الانفس عند ما هو
 في نفس الحاكم الأعلى . ولكنه يتصل منه بمن حوله ومنهم الى من
 دونهم وينفث روحه في كل قوي بالنسبة لكل ضعيف متى مكنته القوة
 من التحكم فيه . يسري ذلك في النفوس رضى الحاكم الأعلى او لم
 يرضَ

كان من اثر هذه الحكومات الاستبدادية ان الرجل في قوته اخذ
 يحقر المرأة في ضعفها . وقد يكون من اسباب ذلك ان اول أثر يظهر في
 الامة المحكومة بالاستبداد هو فساد الاخلاق

قد يمكن ان يتوهم من اول وهلة ان الشخص الواقع عليه الظلم يجب
 العدل ويميل الى الشفقة لما يقاسيه من المصائب التي تتوالى عليه . لكن
 المشاهد يدل على ان الأمة المظلومة لا يصلح جوها ولا تنفع ارضها لنمو
 الفضيلة ولا يربو فيها الا نبات الرذيلة . وكل المصريين الذين عاشوا

تحت حكم المستبدين السابقين -- وما العهد منهم ببعيد -- يعلمون ان شيخ البلد الذي كان يسلب منه عشرة جنيهات كان يستردها مئة من الاهالي . والعمدة الذي كان يضرب مائة كرجاج كان عند عودته الى بلده ينتقم من مائة فلاح

* فمن طبيعة هذه الحالة ان الانسان لا يحترم الا القوة ولا يردع الا بالخوف . ولما كانت المرأة ضعيفة اهتضم الرجل حقوقها واخذ يعاملها بالاحتقار والامتهان وداس بارجله على شخصيتها . عاشت المرأة في انحطاط شديد اياً كان عنوانها في العائلة زوجة او أمّاً او بنتاً ليس لها شأن ولا اعتبار ولا رأي خاضعة للرجل لانه رجل ولانها امرأة / ففى شخصها في شخص الرجل ولم يبق لها من الكون ما يسعها الا ما استتر من زوايا المنازل واختصت بالجهل والتعجب باستار الظلمات واستعملها الرجل متاعاً للذة . يلهو بها متى اراد . ويقذف بها في الطرق متى شاء له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . له الامر والنهي ولها الطاعة والصبر . له كل شيء في الوجود وهي بعض ذلك الكل الذي استولى عليه !

من احتقار الرجل للمرأة ان يملأ بيته بجوار يرض او سود او بزوجات متعددة يهوى الى ايمن شاء منقاداً الى الشهوة مسوقاً بياعث الترف وحب استيفاء اللذة غير مبال بما فرضه عليه الدين من حسن القصد فيما يعمل ولا بما اوجبه عليه من العدل فيما يأتي

- ① من احتقار المرأة ان يطلق الرجل زوجته بلا سبب
- ✓ من احتقار المرأة ان يقعد الرجل على مائدة الطعام وحده ثم
- تجتمع النساء من ام واخت وزوجة وياً كلن ما فضل منه
- ✓ من احتقار المرأة ان يعين لها محافظاً على عرضها مثل انغا او مقدم
- او خادم يراقبها ويصحبها اينما تتوجه
- ✓ من احتقار المرأة ان يسجنها في منزل ويفتخر بانها لا تخرج منه الا
- محمولة على النعش الى القبر
- ✓ من احتقار المرأة ان يعلن الرجال ان النساء لسن محلاً للثقة

والامانة

من احتقار المرأة ان يحال بينها وبين الحياة العامة والعمل في اي
 شيء يتعلق بها : فليس لها رأي في الاعمال ولا فكر في المشارب ولا ذوق
 في الفنون ولا قدم في المنافع العامة ولا مقام في الاعتقادات الدينية
 وليس لها فضيلة وطنية ولا شعور ملي

ولست مبالغاً ان قلت ان ذلك كان حال المرأة في مصر الى هذه
 السنين الاخيرة التي خفت فيها نوعاً سلطة الرجل على المرأة تبعاً لنقدم
 الفكر في الرجال واعتدال السلطة الحاكمة عليهم . ورأينا النساء يخرجن
 لقضاء حاجاتهن ويترددن على المنتزهات العمومية لاستنشاق الهواء
 وترويح النفوس بتسريح النظر في الكائنات التي عرضها الصانع جل شأنه
 على نظر كل مخلوق رجلاً كان او امرأة . وكثير منهن يذهبن مع

رجالهن الى السياحة في بعض البلاد الاخرى . وكثير من الرجال قد
اعطوا لنسائهن مقاماً في الحياة العائلية

وهذا انما طراً على بعض الرجال من نشأة الثقة في نفوس اولئك

الرجال بنسائهم واطمئنانهم الى امانتهن : وهو احترام جديد للمرأة

نعم لا ننكر ان هذا التغيير لا يخلو من وجوه انتقاد . لكن سبب

الانتقاد في الحقيقة ليس هو نفس التغيير ولكنه الاحوال التي احتفت

به واهمها رسوخ عادة الحجاب في انفس الجمهور الاعظم ونقص تربية

النساء . فلو كملت تربية النساء على مقنضى الدين وقواعد الادب

ووقف بالحجاب عند الحد المعروف في اغلب المذاهب الاسلامية

سقطت كل تلك الانتقادات وامكن للامة ان تنفع بجميع افرادها

نساء ورجالاً

Tahsin El Hana

write divided his book

- ~~for~~ for social aspect

- family



٢٧ -
٧

تربية المرأة

١ المرأة وما ادراك ما المرأة . انسان مثل الرجل . لا تختلف عنه في الاعضاء ووظائفها ولا في الاحساس ولا في الفكر ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الانسان من حيث هو انسان . اللهم الا بقدر ما يستدعيه اختلافهما في الصنف

٢ فاذا فاق الرجل المرأة في القوة البدنية والعقلية فذلك انما لانه اشتغل بالعمل والفكر اجيالاً طويلة كانت المرأة فيها محرومة من استعمال القوتين المذكورتين ومقهورة على لزوم حالة من الانحطاط تختلف في الشدة والضعف على حسب الاوقات والاماكن

ولا يزال الناس عندنا يعتقدون ان تربية المرأة وتعليمها غير واجبين . بل انهم يتساءلون هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعاً او هو محرم بمقتضى الشريعة !

واتذكر اني اشرت يوماً على اب وقد رأيت معه بنتاً بلغت من تحرير المرأة

(٢٧)

١٠

١٠

العمر تسع سنوات اعجبني جمالها وذكاءها بان يعلمها فاجابني : " وهل تريد ان تعطىها وظيفة في الحكومة ؟ " فاعترضت عليه قائلاً : " وهل في مذهبك لا يتعلم الا الموظفون ؟ " فاجابني : - " اني اعلمها جميع ما يلزم لادارة منزلها ولا افعل غير ذلك " . قال هذا على وجه يشعر انه لا يجب المناقشة في رأيه . ويعني هذا الاب العنيد بادارة المنزل ان بنته تعرف شيئاً من صناعة الخياطة وتجهيز الطعام واستعمال المكوى وما اشبه ذلك من المعارف التي لا انكر انها مفيدة بل لازمة لكل امرأة . ولكني اقول ولا اخشي نكيراً انه مخفي في توهمه ان المرأة التي لا يكون لها من البضاعة الا هذه المعارف يوجد عندها من الكفاءة ما يؤهلها الى ادارة منزلها

ففي رأيي ان المرأة لا يمكنها ان تدير منزلها الا بعد تحصيل مقدار معلوم من المعارف العقلية والادبية . فيجب ان نتعلم كل ما ينبغي ان يتعلمه الرجل من التعليم الابتدائي على الاقل حتى يكون لها المام بمبادئ العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشغال به متى شاءت

فاذا نعلت المرأة القراءة والكتابة واطلعت على اصول الحقائق العلمية وعرفت مواقع البلاد واجالت النظر في تاريخ الامم ووقفت على شيء من علم الهيئة والعلوم الطبيعية وكانت حياة ذلك كله في نفسها عرفاناً العقائد والآداب الدينية استعداد عقلاً لقبول الآراء السليمة

نفساً حية فعالة تنتج بقدر ماتستهلك لا كما هي اليوم عائلة لا تعيش الا بعمل غيرها . ولكن ذلك خيراً لوطنها لما ينتج عنه من ازدياد الثروة

ex ex

العامة والثمرات العقلية فيه

وانما مثلنا الآن مثل رجل يملك رأس مال عظيم فيدعه في

الصندوق ويكتفي بان يفتح صندوقه كل يوم ليمتتع بروية الذهب ولو

عرف لاستعمله وانتفع منه وضاعفه في سنين قليلة

من عوامل الضعف في كل مجتمع انساني ان يكون العدد العظيم من

افراده كلاً عليه لا عمل له فيما يحتاج اليه وان عمل كان كالاته السماء

او الدابة العجاء لا يدري ما يصدر منه

المراة محتاجة الى التعليم لتكون انساناً يعقل ويريد . بلغ من أمر

المراة عندنا أننا اذا تصورناها وجدنا من لوازم تصورنا ان يكون لها ولي

يقوم بحاجاتها ويدير شؤونها كأن وجود هذا الولي أمر مضمون في جميع

الاحوال . مع أن الوقائع اظهرت لنا ان كثيراً من النساء لا يجدن

من الرجال من يعولهن . فالبنت التي فقدت اقرباءها ولم تنزوج والمراة

المطلقة والارملة التي توفي زوجها والوالدة التي ليس لها اولاد ذكور

اولها اولاد قصر — كل هذه المذكورات يحتجن الى التعليم ليكنهن

القيام بما يسد حاجتهن وحاجات اولادهن ان كان لهن اولاد . أما

تجردهن عن العلم فيلجؤهن الى طلب الرزق بالوسائل المخالفة للاداب

أولى التطفل على بعض العائلات الكريمة

Handwritten notes and symbols on the right margin.

Handwritten notes and symbols on the right margin.

Handwritten notes and symbols on the right margin.

Handwritten notes and symbols on the right margin.

Handwritten notes on the left margin.

Handwritten notes at the bottom left.

Handwritten notes at the bottom center.

Handwritten notes at the bottom right.

ويمكن ان يقال اننا لو بحثنا عن السبب الذي قد يحمل تلك المرأة المسكينة التي تبذل نفسها في ظلام الليل لأول طالب - وما اكبر هذه المذلة على المرأة - لوجدناه في الأغاب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .

ثم انه لا يكاد تخلو عائلة مصرية من تحمل نفقات عدد من النساء اللاتي وقعن في العوز ولا قدرة لهن على العمل للخروج منه . ويمكننا ان نعد هذا من الاسباب المانعة للعائلات من السير على قواعد الاقتصاد . لهذا السبب وغيره نرى الاختلال الجسمي في مالية العائلات فان الرجل المصري الذي يشتغل لكسب عيشه وعيش اولاده يرى شطراً من المال الذي يجمعه ينفق على اشخاص من اقاربه أو معارفه او ممن لاعلاقة له بهم ولكن تلزمه الرأفة الانسانية بان يبذل لهم من كسبه ما يستطيع كيلا يموتوا جوعاً . وهم يرون أنه انما يفعل ما يجب عليه ومع ذلك هم قادرون على الكسب ولكن يحول بينهم ويذنه جهلهم باستعمال ما أوتوا من القوة وذلك بسبب ما حرموه من التربية ولوفرص أن المرأة لا تخلو من زوج أو ولي ينفق عليها أفلاتكون التربية ضرورية لمساعدة ذلك العائل ان كان فقيراً أو تخفيف شئ من اثقال ادارة المال داخل البيت ان كان غنياً ؟ فان كانت المرأة غنية بنفسها - وهو نادر - بأن كان لها ايراد من عقارات ونحوها أفلا يفيدها

- the reason behind asking
for educated women

تربية المرأة
- consequences

(٤) التعليم في تدبير ثروتها وإدارة شؤونها؟
of uneducated women

نرى النساء كل يوم في اضطراب إلى تسليم أموالهن إلى قريب
أو أجنبي. ونرى وكلاءهن يشتغلون بشؤون أنفسهم أكثر مما يشتغلون
بشؤون موكلاتهم فلا يمضي زمن قليل إلا وقد اغتنى الوكيل
وافنقر الأصيل

نرى النساء يضعن أختامهن على حساب أو مستند أو عقد يجهان
موضوعه أو قيمته وأهميته لعدم ادراكهن كل ما يحتوي عليه أو عدم
كفاءتهن لفهم ما أودعه فجرد الواحدة منهن عن حقوقها الثابتة بتزوير
أو غش أو اختلاس يرتكبه زوجها أو احد أقاربها أو وكيلها. فهل كان
يقع ذلك لو كانت المرأة متعلمة؟

على أن التعليم في حد ذاته هو في كل حال حاجة من حاجات
الحياة الإنسانية. وهو الآن من الحاجات الأولى في كل مجتمع دخلت
فيه المدنية. وأصبح العلم هو الغاية الشريفة التي يسعى إليها كل شخص
يريد أن يحصل سعادته المادية والروحية

ذلك لأن العلم هو الوسيلة الوحيدة التي يرتفع بها شأن الإنسان
من منازل الضعة والانحطاط إلى مراقي الكرامة والشرف. ولكل نفس
حق طبيعي في تنمية ملكاتها الغريزية إلى أقصى حد ترمى إليه باستعدادها
وقد جاءت الشرائع الإلهية والقوانين الوضعية تخاطب النساء كما
تخاطب الرجال. والفنون الجميلة والصنائع والمخترعات والفلسفة العالية

كل ذلك يستلقت من المرأة مثل ما استلقت من الرجل . فاي نفس شريفة لا تشاق الى مطالعتها والتمتع بكنوزها طلباً للحقيقة والسعادة في الدنيا والآخرة ؟ وأي فرق بين الرجل والمرأة في هذا الشوق ونحن نرى ان الصبيان من الذكور والأناث يستوون في الاستفهام عن كل شيء يعرض لهم وطلب العلم بأسباب ما يقع تحت أبصارهم من الحوادث ؟ وربما كان الوله بذلك في الانثى أشد منه في الذكر

أي نفس حساسة ترضى بالمعيشة في قفص مقصورة الجناح مطاطة الرأس مغمضة العينين وهذا الفضاء الواسع الذي لا نهاية له أمامها والسماء فوقها والنجوم تلعب ببصرها وارواح الكون تناجيها وتوحي اليها الآمال والرغائب في فتح كنوز أسرارها ؟

التكاليف الشرعية تدلنا على ان المرأة وهبت من العقل مثل ما وهب الرجل . أيظن رجل لم يعمه الغرض ان الله قد وهبها من العقل ما وهبها عبثاً . وانه أتاها من الحواس والآلات الادراك ما أتاها لاجل ان تهملها ولا تستعملها ؟

يقول المسلمون ان النساء ربات الخدور يعمرن المنازل . وان ^{سنة} ^{الاسلام} وظيفتهن تنتهي عند عتبة باب البيت . وهو قول من يعيش في عالم الخيال وضرب بينه وبين الحقيقة بحجاب لا ينفذ بصره الى ما وراءه . ولو تبصر المسلمون لعلموا ان اعفاء المرأة من أول واجب عليها وهو التأهل لكسب ضروريات هذه الحياة بنفسها هو السبب الذي

العناية بتربية عقلها وتنمية الملكات الفاضلة فيها لنمت فيها بذلك قوة الحكم على احساسها ولتصرف في اعمالها على مقضى الحكمة وقواعد الادب أضلت المرأة عقلها في ظلمات الاجيال الماضية ففقدت رشدها وادركها العجز عن تناول ما تشتهي من الطرق المسنونة فاضطرت الى استعمال الحيلة واخذت تعامل الرجل — وهو سيدها وولي امرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه . ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع . فاصبحت ممثلة ماهرة ومشخصة قادرة تظهر في المظاهر المتضادة والألوان المختلفة في كل حال بحسبها . كل ذلك لا عن عقل وحكمة وانما هي حيل الثعالبه

ولكن لا لوم عليها وعذرنا انها ليست حرة . وانما فقدت الحرية لانها فقدت السلامة في قوة التمييز . بل اللوم كل اللوم على الرجال : اريد بهم من سبقنا ممن اهملوا تربية نساءنا

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

✽ واما بالنسبة للوظيفة العائلية ✽

فيكفي لكل انسان متفكر ان يتأمل في حالة عائلته ليتأكد ان استمرار الحال على ما هي عليه الآن صار مما لا يمكن احتمالها اني اكتب هذه السطور وذهني مفعم بالحوادث التي وردت عليّ بالتجربة واخذت بمجامع خواطري . ولا أريد أن أذكر شيئاً منها لعلمي

انها ما تركت ذهنًا حتى طافت به ولا خاطرًا حتى وردت عليه . فان
 مشارهذه الحوادث جميعها هوشية واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات
 لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة .
 فقد تساوت النساء عندنا في الجهل مساواة غير محبوبة ولا يظهر
 اختلافهن الا في الملبس والحلي . بل يمكن ان يقال انه كلما ارتفعت
 المرأة مرتبة في اليسر زاد جهلها . وان آخر طبقة من نساء الامة وهي
 التي تسكن الارياف هي اكلمن عقلاً بنسبة حالها

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح . مداركهما في
 مستو واحد لا يزيد احدهما عن الآخر تقريباً . مع اننا نرى ان المرأة
 في الطبقة العالية أو الوسطى متأخرة عن الرجل بمسافات شاسعة . ذلك
 لان الرجال في هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ولم تتبعهم
 نساؤهم في هذه الحركة بل وقفن في الطريق . وهذا الاختلاف هو
 اكبر سبب في شقاء الرجل والمرأة معاً

فالرجل المتعلم يجب النظام والتنسيق في منزله وله ذوق مهذب
 يميل الى الاشكال اللطيفة والاحساسات الدقيقة والالتفاتات الرقيقة
 وبلغ الاهتمام بها عند بعض الافراد حداً ينتهي الى اهمال الامور
 المادية . يفهم بكلمة ويود لو يفهم بالاشارة . يسكت في اوقات ويتكلم
 في أخرى ويضحك في غيرها . له افكار يحبها ومذهب يشغله وجمعية
 يخدمها ووطن يعزه . له لذائذ وآلام معنوية فيبكي مع الفقير ويحزن مع

المظلوم ويفرح باختر للناس . وفي كل فكرة تتولد في ذهنه او احساس
يؤثر على اعصابه يود ان يجد بجانبه انساناً آخر فيشرح له ما يشعر به
ويتسامر معه . وهذا ميل طبيعي يجده كل شخص من نفسه . فاذا
كانت امرأته جاهلة كتم افراحه واحزانه عنها ولم يلبث ان يرى نفسه
في عالم وحده وامرأته في عالم آخر . اذ هي تعتبر ان الرجل ما خلق في
هذه الدنيا الا ليشتري لها الاقمشة الغالية والجواهر النفيسة وليصرف
اوقاته في ملاحظتها كأنه صورة أكبر من الصور التي كان يشتريها لها
والدها في صغرها لتلمو بها

ومتى رأى الرجل امرأته بهذه المنزلة من الجهل بادر الى نفسه
احقارها واعتبرها من الاعداء التي لا اثر لها في شؤونه . وهي متى رأت
اهمل واغضى ضاق صدرها وظنت انه يظلمها وبكت سوء حظها الذي ساقها
الى رجل لا يقدرها قدرها ونبت البغضاء في قلبها . ومن ثم تبتدىء
عيشة لا أظن ان الجحيم أشد نكالا منها . عيشة يرى كل منهما فيها
ان صاحبه هو العدو الذي يحول بينه وبين السعادة

ولا يظن ان هذا يختص بذوي الاخلاق الفاسدة من الرجال
والنساء . فقد تكون المرأة طيبة صالحة والرجل شريف الاحساس ولكن
العيشة بينهما خصام مستمر ولا ذنب على احدهما بل الذنب على
اختلافهما في التربية كما تقدم . ومنتهى هذه الحالة — ان استمر
الاقتران بينهما — ان يميت احدهما حقه في سبيل راحة الآخر او يجز

كلاهما قيده الثقيل الى آخر العمر. ولكن مهما كان حال الزوجين - وهما على ما ذكرنا من الوصف - فلا سبيل الى ارتباطهما برابطة المحبة اذا أخذت بمعناها الخاص : ولا خسران في الدنيا يبلغ فقد لذة الحب بين الرجل والمرأة

جاء في القصص الدينية المسطورة في الكتب السماوية ان الله خلق حواء من ضلع آدم . وفيه على ما اظن رمز لطيف الى ان الرجل والمرأة يكونان مجموعاً واحداً لا يتم الا باتحادهما . ومن هذا المعنى أخذ الغربيون تسميتهم المرأة بنصف الرجل . وهو تعبير فصيح يدل دلالة واضحة على ان المرأة والرجل هما شقان لجسم واحد مفتقر بعضه الى بعض ليتم له الكمال بالاجتماع

وهذا الانجذاب الغريزي الذي اوجده الله في كل المخلوقات الحية - حتى في النباتات التي يشاهد في بعضها حركة محسوسة بين الذكر والانثى اذا ان وقت التلقيح على طريقة حار في تفسيرها علماء الطبيعة - هو اتم عنصر يدخل في تركيب الحب . وهو يكتفي لحدوث الميل بين الرجل والمرأة ولا يختلف في الانسان عن الحيوان . اما اصل هذا الانجذاب وطبيعته وسببه فهو امر لا يزال غامضاً كاصول كل الاشياء تقريباً . وانما يرجح قسم من العلماء انه سيال يتولد في المراكز العصبية . فمتى وجد هذا الانجذاب بين رجل وامرأة شعرا بضرورة اقترابهما . فاذا تلاقيا أخذت كلا منهما هزة الفرح . تتكلم عيونهما

وتترجم عن الاضطرابات التي تهيج قلوبها قبل ان ينطق اللسان كأن روحيهما صديقان افترقتا في عالم قبل هذا العالم واخذت كل واحدة منهما تبحث عن الأخرى حتى اذا التقتا وجدت كل منهما ضالتها التي كانت تنشدها . وتنشأ فيهما بعد اللقاء آمال وأمانى أكبر من مجرد التلاقي فتخلطان ويحدث بينهما شبه العهد على ان لا تفترقا . ترى كل واحدة منهما ان لا سعادة لها الا باتصالها بالأخرى

لكن هذا الانجذاب المادي لا يلبث مدة حتى يأخذ في التلاشي ويتناقص شيئاً فشيئاً . فمهما كانت شدة الرغبة عند اول التلاقي فهي صائرة الى الزوال في زمن يختلف طوله وقصره باختلاف الامزجة . وتضمحل تلك الآمال وتتساقط تلك الأمانى ويكاد التقاطع يحل محل التواصل لولا ما اختص الله به الانسان من القدرة على استدامة تلك العاطفة والاستزادة من لذة الوصال بما يستجلي من بهاء الارواح وسناء العقول . فهو يضم الى المنظر البديع الجسداني منظرًا آخر قد يكون ابداع في اعتباره وهو المنظر الروحاني العقلي . وكثيراً ما يستبدل لذة الحس التي لا بقاء لها بلذة العقل والوجدان التي لا تنتهي اطوارها ولا تمنى مظاهرها . يستهويه الحب لمشهد الوجه الجميل وسواد العيون ورشاقة القد وطول الشعر . ولكن يمتزج العشق بروحه حتى يكون كأنه طبع لما اذا وجد بجانب ذلك الجمال لطف الشمائل ورقة الذوق وبهاء الفطنة ونفاذ العقل وسعة العرفان وحسن التدبير والحذق في العمل مع المحافظة

على النظام فيه ونظافة الباطن والظاهر وحنو القلب وصدق اللسان
وطهارة الذمة وعظم الامانة والاخلاص في الولاء ونحو ذلك من الفضائل
المعنوية التي ترجح عند العقلاء على جميع المحاسن الجسدانية . ووجدان
اللذة بهذه المعاني عنصر آخر يدخل في تركيب الحب ايضاً — ومن
هذين العنصرين يتركب الحب التام

واما ما يروى من ان رجلاً عشق امرأة عشقاً روحانياً محضاً او
ان آخر عشق أخرى للذة المادية ليس الا بدون اعتبار تلك الصفات
الادبية فقد يكون لان الأول رجل خيالي والثاني رجل جاهل
شهووي . على ان التجارب دلت على ان هذه الشهوات البتراء ليس
لها حظ من البقاء . فهي كالنار ذات اللهب تهب وتنطفئ بسرعة
واليك بياناً يزيد وضوحاً في فهم ما تقدم :

اللذة الجسمانية المتحدة في النوع مهما تخالفت في الافراد فهي دائماً
واحدة . فان افراد اللذة المتحدة في النوع تتشابه الى حد تكاد لا تتميز
الا باختلاف الزمان او المكان مثلاً فما يحصل منها اولاً هو ما يحصل
ثانياً وثالثاً ورابعاً وهكذا

ومن البديهي ان تكرار لذة بعينها مهما كانت سواء كانت لذة
نظر او لذة سمع او لذة ذوق او لذة لمس يفضي في الغالب الى فقد
الرغبة فيها فياتي زمن لا تثبه الاعصاب لها لكثرة تعودها عليها .
والامر بخلاف ذلك بالنسبة للذة المعنوية . هذه اللذة في طبيعتها انه

يمكن تجدها في كل آن . تأمل في مسامرة صديقين تجد انها كنز سرور لا يفنى . متى تلاقيا يفرغ كل منهما روحه في روح الآخر فيسريه عقلا من موضوع لموضوع وينتقل من الجزئيات الى الكليات ويمر على الآلام والآمال والقيح والحسن والناقص والكامل . كل عمل او فكر او حادث او اختراع يكسب عقلا غذاءً جديداً ويفيد نفسها لذة جديدة . كل مظهر من مظاهر حياة احدها العقلية والوجدانية وكل ما تحلت به نفسه من علم وأدب وذوق وعاطفة تنعكس منه على نفس الآخر لذة جديدة ويزيد في رابطة الألفة بينهما عقدة جديدة . ومن هنا يعلم مقدار سلطان الحب الحقيقي على الانسان وكيف ان العارف يعتبر العثور على ذلك الحب الشريف من اكبر السعادات في هذه الدنيا . فان كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها فهذا الحب لا يمكن ان يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب في التربية والتعليم . ولا يجب ان يفهم ان الرجل المتعلم اذا لم يحب زوجته فهي يمكنها ان تحبه . فان توهم ذلك يعد من الخطأ الجسيم لان الحب الحقيقي الذي عرفت عنصريه المادى والمعنوي لا يبقى الا بالاحترام . والاحترام يتوقف على المعرفة بمقدار من تحترمه . والمرأة الجاهلة لا تعرف مقدار زوجها

سل جمهور المتزوجين هل هم محبوبون من نساءهم يجيبونك نعم . لكن الحقيقة غير ما يظنون - اني بحثت كثيراً في عائلات مما يقال

انها في اتفاق تام فما وجدت الى الآن لا زوجاً يجب امرأته ولا امرأة
تحب زوجها . اما هذا الاتفاق الظاهري الذي يشاهد في كثير من
العائلات فمعناه انه لا يوجد شقاق بين الزوجين اما لان الزوج تعب
وترك واما لان المرأة تركت زوجها يتصرف فيها كما يتصرف المالك
في ملكه واما لانهما الاثنان جاهلان لا يدركان قيمة الحياة . وهذا
الحال الاخير هو حال اغلب الأزواج المصريين . ولا ارى ما يقرب من
السعادة الا في هذا النوع الاخير وان كانت سعادة سلبية لا قيمة لها
اما في النوعين الاولين فقد اشترى الوفاق بثمن غال وهو فناء
احد الزوجين في سبيل ابقاء الآخر . وغاية ما يمكن ان اسلم به هو انه قد
يشاهد في عدد قليل من الأزواج شيء يقرب من المودة يظهر في بعض
الاحيان ثم يختفي . وهو استثناء يؤيد القاعدة وهي عدم الحب : عدم الحب
من طرف الزوج لان امرأته متأخرة عنه في العقل والتربية تأخرًا
فاحشاً بحيث لا يكاد توجد مسألة يمكن ان يتحدثا فيها لحظة بسرور
متبادل . ولا يكاد يوجد امر يتفقان في الحكم عليه برأي واحد .
ولانها بعيدة عن العواطف والمعاني والاشغال التي يميل اليها ومغمورة
في شؤون ليس لها من ميله نصيب . حتى انها في الامور التي هي من
عملها وترى انها خلقت لاجلها لا يرى منها زوجها ما يروق نظره .
فاكثر النساء لم يتعودن على تسريح شعرهن كل يوم . ولا على الاستحمام
اكثر من مرة في الاسبوع . ولا يعرفن استعمال السواك . ولا يعتنين

بما يلي البدن من الملابس مع ان جودتها ونظافتها لها اعظم تأثير في استمالة الرجل . ولا يعرفن كيف تتولد الرغبة عند الزوج وكيف يحافظ عليها وكيف يمكن نتميتها وكيف تكون موافاتها . ذلك لأن المرأة الجاهلة تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة اسباب الميل والنفور فاذا ارادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس ذلك واما عدم الحب من طرف المرأة فلأنها لا تذوق معنى الحب . ولو اردنا ان نحلل احساسها بالنسبة لزوجها نجد انه يتركب من امرين ميل اليه من حيث هو رجل ايح لها ان تقضى معه شهواتها . وشعور بان هذا الرجل نافع لها للقيام بمحاجات معيشتها . اما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت كل منهما الاخرى من بين آلاف من سواهما امتزاجاً تاماً يؤلف منهما موجوداً واحداً كأن كلاهما صوت والآ خر صده . ذلك الاخلاص التام الذي ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكراً الا في صاحبه . ذلك الاخلاص الذي لا نجد له مثلاً اظهر من حب الوالدة لولدها — فهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض . لان الحب بهذه الدرجة ان لم يكن طبيعياً كحب الام لولدها فهو ثمرة عزيزة لا تطلب الا عند النفوس العالية التي تغلبت فيها العواطف الكريمة على الاستئثار والزوجة المصرية مهما كانت لا تعرف من زوجها سوى انه طويل او قصير ابيض او اسود . اما قيمة زوجها العقلية والادبية وسيرته وطهاره ذمته ودقة احساسه ومعارفه واعماله ومقاصده في الوجود وكل ما

تصاغ منه شخصية الرجل منا ويصير به الى ان يكون محترماً محبوباً بمدوحاً
في امته - فهذا لا يصل الى عقلها شيء منه . وان وصل فلا يؤثر على
منزلته في نفسها . وعلى هذا يكون اول من يجهل الرجل زوجته . فكيف
يظن انها تحبه ؟

نرى نساءنا يمدحن رجالاً لا يقبل رجل شريف ان يمد لهم يده
ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفاً لنا . ذلك لأن
المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فاحسن رجل عندها هو
من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء
ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وابتغض الرجال عندها من
يقضي اوقاته في الاشتغال في مكتبه . كلما رأته جالساً منحني الظهر
مشغولاً بمطالعة كتاب غضبت منه ولغنت الكتب والعلوم التي تسلب
منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التي اكتسبتها على زوجها . ومن
هذا يتولد على الدوام نزاع لا ينتهي الا بنزاع جديد ولا يدري الزوج
المسكين ماذا يصنع اذا اراد ان يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم .
أراه في حيرة اشد من الرجل الذي جمع بين زوجتين . فقد رأينا احياناً
كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل واحد . وما سُمع قط ان امرأة
مصرية ممن نعني رضيت بمباشرة العلم

ومن البديهي ان الرجل الذي يكون هذا حاله ينتهي بفقد كل
استعداد للعمل . لان العلم لا يثمر الا اذا كان العقل متمتعاً بالهدوء والسكون

خالياً عن الاضطراب والتشويش . ولأن الرجل يطلب راحته وهي في يد امرأته ولكنها تبخل بها عليه

رأينا مما تقدم ان المرأة المصرية لا تجد ذوق الحب خصوصاً اذا كان زوجها متعلماً يصرف وقته في الاعمال النافعة

قد يقال ان الحب الذي تكلمت عنه هو من كمال السعادة وليس من الامور الضرورية التي لا يُستغني عنها في الزواج . وانه عند فقده يمكن ان يعوض بصفات أخرى عند الزوجة ويكفي ان المرأة تكون رفيقة لزوجها شريكة له في المنافع والمضار ولذلك فهي تساعد على حاجات الحياة ليتم له بعض السعادة - هذا يمكن ان يكون . ولكن كيف الوصول اليه ايضاً مع جهل المرأة ؟

قلت ان المرأة الفلاحة مع جهلها هي زميلة الرجل في كل اعماله وهي قائمة بخدمة منزلها ومساعدة زوجها . ذلك سهل لأن العيشة في الأرياف ساذجة بدوية تقريباً وحاجات العائلة قليلة . اما في المدن التي ترقى فيها المعيشة وكثرت الحاجات وتشعبت طرق المنافع وبلغت فيها ادارة المنزل الى درجة ادارة مصلحة من كبار المصالح فالمرأة التي يسلم اليها زمامها لا يمكنها ان تديرها الا بالتعليم والتربية

والحقيقة ان ادارة المنزل صارت فناً واسعاً يحتاج الى معارف كثيرة مختلفة . فعلى الزوجة وضع ميزانية الايراد والمصرف بقدر ما يمكن من التدبير حتى لا يوجد خلل في مالية العائلة . وعليها مراقبة

الخدم بحيث لا يُفقدون لحظة من مراقبتها وبغير هذا يستحيل ان
يؤدوا خدمتهم كما ينبغي . وعليها ان تجعل بيتها محبوباً الى زوجها فيجد
فيه راحته ومسرته اذا اوى اليه . فتحلوه له الاقامة فيه ويلذ له المطعم
والمشرب والنام فلا يطلب المفرد منه ليمضي اوقاته عند الجيران او في
المحلات العمومية . وعليها - وهو اول الواجبات واهمها - تربية الاولاد
جسماً وعقلاً وأدباً

وظاهر ان تطبيق هذه الواجبات التي ذكرتها بالاجمال على العيشة
الجارية بالتفصيل يستدعي عقلاً واسعاً ومعلومات متنوعة وذوقاً سليماً :
ولا يتأتى وجود ذلك في المرأة الجاهلة وخصوصاً ما يتعلق منها
بتربية الأطفال

بالغنا في نسيان ان الاولاد هم صناعة الوالدين وان الامهات هن
النصيب الأوفر في هذه الصناعة . بالغنا في اعتقاد ان الله يخرج الفاسد
من الصالح ويخرج الصالح من الفاسد . وانه يوزع العقول ويهب الصفات
كما يشاء . وهو اعتقاد صحيح اذا أخذ من جهة ان الله قادر على كل شيء
ومن متناول قدرته ان يفعل مثل ذلك . فان كان المقصود ان الله
يمكنه ان يفعل مثل هذا فلا شك في قدرته سبحانه وتعالى . وليس من
ينازع في انه لو شاء فعل ذلك . كما انه لو شاء لجعل الناس امة واحدة
ولأنبت الحيوان من الارض . لكن الله وضع للعالم سنة وللحياة نظاماً
وللمخلوقات نواميس تجري عليها احكامها :

«فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا . لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ»
وتاريخ الانسانية من عهد وجودها على الارض الى الآن ايد ثبات
هذه السنن واستمرارها

من اكبر مظاهر حكمته جل شأنه هذه الحقيقة التي كشفها لنا
العلم وهي ان كل فرد من الانواع الحية — وفيها النوع الانساني — ليس
الانسخة مطابقة للاصل المتولد منه . ففيه صورة نوعه الكلي وفيه صورة
والديه خصوصاً . بمعنى ان هذا الفرد يحتوي اولا على الخواص المميزة
لنوعه وعلى الصفات الخاصة بابويه

ودلت الاكتشافات الحديثة ايضاً على ان كل الملكات العقلية
والادبية في الانسان انما هي مظاهر من وظائف المخ كما ان الصفراء
من عمل وظيفة الكبد . وما يسمى عقلا او عاطفة فلا عمل له الا عمل
تلك الوظائف وعملها تابع لحالة الاعصاب والمخ . وانما مادة تلك
الاعضاء منتزعة من الاصل الذي تولدت منه فلا ريب ان يكون
لها تبعية عظيمة لذلك الاصل . ثم من الظاهر ان الجسم لا يستغنى في نموه
وبقائه بما دخل فيه من تلك المادة الاولى بل لا بد في النمو والبقاء من
التربية والغذاء . فكذلك حال العقل والملكات لا يستغنى بما اودعته المدارك
والقوى من الاستعداد الاول بل لا بد في ظهور اثرها وسيرها فيما اعدت
له من الغذاء الذي يوافقها والتربية التي تلائمها . فالوراثة والتربية هما
الاصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الطفل ذكراً كان او انثى وليس

هناك شيء وراء ذلك

فبالوراثة يكسب الطفل استعدادا لكل ميل كان عليه الوالدان صالحاً كان او فاسداً ويرتكز فيه ذلك الاستعداد وهو في بطن أمه .
 فصفت الطفل مرتبطة بما كان عليه اسلافه من جهة الام ومن جهة الاب . وبالتربية يمتليء ذهن الطفل بالصور الواردة عليه من الاحساس وبأثرها في نفسه المأ كان او لذة . وتعرض حسه لقبول هذه الصور موكول الى ارادة مربيه . فهو الذي يريه ويسمعه ويذيقه ويفيده كل معلوم . وهو الذي يعرض على وجدانه من العواطف ما يراه لائقاً به . فان لم يرد عليه من صور المحسوسات الا ما هو قليل غير متبوع بما ينشأ عنه من العواقب البعيدة . اولم يشعر من العواطف الا بما يظهر اثره في اقرب الاشياء من لذته الجسمانية كان سريع الاندفاع مع اول خاطر يبدو له كما يفعل الطفل والمتوحش والمجنون . وان كانت معلوماته كثيرة تحتوي على صور الاشياء وصور ما يحدث عنها لاول التصور وما ينشأ عنها فيما بعد ذلك . وكان وجدانه رقيقاً لطيفاً كان الناشئ كثير التأمل شديد التبصر بطيء الاندفاع مع اول انفعال يتأثر به من الحس والشعور . فينشأ ويده ميزان يزن به اعماله ويقدر به حركاته ويشاهد فيه وهو في صباه الميل الى النافع والنفرة من الضار .
 لا نقول ان الطفل يكون في ذلك كما يكون الرجل البالغ الرشيد . ولكنها اوائل وجراثيم من الكمال العقلي والادبي تصل بالتنمية والتربية الى تلك

الغايات الشريفة التي يسعى اليها كل من عرف معنى الانسانية وذوق لذة
الفضيلة . فسلامة العقل لانتم الاجسن الوراثه وحسن التربية وهذا
ما جعل العلماء ينسبون اليوم كل فساد في الاخلاق الى مرض في المخ
او في الاعصاب موروث او مكتسب . وان شوهده ان الولد لا يشابه
ابويه في بعض الاحوال فذلك انما لان قانون الوراثة قد يرجعه الى احد
اسلافه القربين

متى حسنت التربية على الوجه الذي ذكرناه ضعف الاستعداد
الذي كسبه الطفل من والديه ان كان رديئاً وتأصل فيه استعداد
جديد يرثه عنه من يتولد منه ويقوى فيه ذلك الاستعداد ان كان
حسناً فيبلغ غاية ما يرجى لانسان فاضل من ابوين فاضلين ويظهر اثر
ذلك ايضاً في اولاده واعقابه ان استمر نظام التربية فيهم على الوجه الذي
صار به هذا الوالد رجلاً صالحاً . اما ان كانت التربية فاسدة وكل ما
يرد على الطفل انما يثير فيه أهواء باطلة فالاستعداد الخيث يقوى
والاستعداد الطيب يضمحل ويموت ويجني على اولاده تلك الجناية
التي جناها عليه والداه

قال الغزالي في التربية عبارة جميلة مختصرة اشتهت ان اوردها
هنا وهي : «الصبي امانة عند والديه . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة سازجة
خالية عن كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش . ومائل الى كل ما
يمال اليه به . فان عوّد الخير وعلمه وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا

والآخرة وشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب . وان عود الشر
واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي
له . وقد قال الله عز وجل : « يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا »

والتربية تختصر في امر واحد هو تعويد الطفل على حسن الفعل
وتحلية نفسه بجميل الخصال . والوسيلة الى ذلك واحدة هي ان
يشاهد الطفل آثار هذه الاخلاق حوله . لأن التقليد في غريزة
الطفل يكتسب به كل ما تلزم معرفته . فان كانت الأم جاهلة تركت
ولدها لنفسه يفعل ما يزينه له عقله الصغير وشهواته الكبيرة . ويرى
من الأعمال ما لا ينطبق على محاسن الأدب فيتخلق بالاخلاق
القيحة ويعتاد العوائد الفاسدة

ويرى الاسوة السيئة في بيته وفي الخارج وكما تقدم في السن
رسخت فيه هذه الاخلاق وكبرت معه بكبره . فاذا وصل الى سن
الرجولية رأى نفسه او رآه الناس رجلاً سيئاً التربية ولا سبيل له بعد
ذلك الى اصلاح نفسه مهما كانت ارادته ومعارفه وعقله . ويندر
جداً ان يوجد شخص يتدىء بعد بلوغه سن الرجولية في اصلاح ما
فسد من ملكاته ثم ينجح في ذلك . اللهم الا الى حد محدود

ومن المعلوم ان الطفل لا يعيش من طفولته الى سن التمييز الا
بين النساء . فهو دائماً محاط بأمه واخواته وعماته وخالاته وخادماتهن
وصواحبتهن ويرى اباه في اوقات قليلة . فاذا كان هذا الوسط الذي

ينشأ فيه طيباً كانت تربيته طيبة وان كان سيئاً ساءت تربيته . والام
 الجاهلة ليس في استطاعتها ان تصبغ نفس ولدها بصبغة الصفات
 الجميلة لانها لا تعرفها . وغاية ما تستطيع هو أنها تدعه يلتقط الخلال الرديئة
 بما يعرض له ان لم تبذر بيدها حبوبها في نفسه وتغرس فيها الملكات السيئة
 أليس من جهل الام بقوانين الصحة ان تهمل ولدها من النظافة
 فيعلوه الوسخ وتتركه متشرداً في الطرق والاذقة يتمرغ في الاتربة كما
 يتمرغ صغار الحيوانات ؟ اليس من جهلها ان تدعه كسلان يفر من العمل
 ويضيع وقته الذي هو رأس ماله مضطجعاً او نائماً او لاهياً مع ان سن
 الطفولية لا يعرف الكسل وهو سن النشاط والعمل والحركة ؟ اليس
 من اثر جهلها ان جميعاً مصابون بشلل في اعصابنا حتى صرنا لانتاثر
 من شيء مهما بلغ في الحسن والقبح . فاذا رأينا عملاً جميلاً مدحناه من
 طرف اللسان . واذا شاهدنا فعلاً قبيحاً استهجنناه بهز الرؤوس وظاهر
 من القول بدون ان نشعر بانبعث باطني يقهرنا على الاندفاع الى الاول
 ولا على الابتعاد عن الثاني ؟ اليس من جهلها ان تسلك في تأديب ولدها
 طريق الاخافة بالجبن والعفارية . وان تأخذ من وسائل صيانته ووقايته
 من المضرات تعليق التعاويذ والطواف به حول القبور وفي زوايا
 الاضرحة وغير ذلك مما لا يبالي به الجاهلون باصول الدين وفضائل
 الاعمال وله من الاثر السيء في انفس الناشئين بل وفي ارواح الرجال
 ما يجر الى كل شر ويبعد عن كل خير ؟

قد صار من المقرر عندنا ان الامهات لا يفلحن في تربية الاولاد حتى صار من المثل في الحطة ورداءة السير ان يقال فلان تربية امرأة - على اننا نرى ان تربية المرأة في البلاد الغربية تفوق تربية الرجل . وان احسن الناس تربية هم من ساعدهم الدهر في ان تتولى تربيتهم امرأة . وليس هذا بغريب فان المرأة تمتاز على الرجل بغرائز طبيعية هي بها اقوى استعداداً للنجاح في التربية . ذلك انها اصبر من الرجل فيما تحب . وانها الطف منه في المعاملة وارق منه في العواطف والاحساسات . ويفتخر الغريون بتأثير النساء في احوالهم حتى بعد بلوغ رشدهم . فقد قرأت في احد كتب رونان الفيلسوف الشهير ما محصله : « ان اجمل ما وضعه في مؤلفاته كان الهاماً من اخته » وقال الفونس دوديه الكاتب المجيد في بعض ما كتبه : « ان كنت استحق فخراً فلا مرأتى نصفه » . وامثال هذه الشواهد كثيرة يعلمها كل من اطلع على احوال الاوروبوين . وكلها تدل على ان تربية المرأة امر لا يستغنى عنه . وان القسم الاعظم منها منوط بالمرأة وقد نجد في هدى نبينا صلى الله عليه وسلم ما يشير الى ذلك . بل كان يجب ان يعد اصلاً من الاصول التي تركز اليها في بناء امورنا المليية حيث قال في شأن عائشة رضی الله عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » : وعائشة امرأة لم تؤيد بوحي ولا بمعجزة وانما سمعت فوعت وعلمت ففعلت .

اود ان كل مصري يرى ان مسألة التربية عندنا هي ام سائر المسائل . وان كل مسألة غيرها مهما كانت اهميتها داخلية فيها عرف المصريون بعوائد و اخلاق استفادوها من حوادث تاريخية ليس هذا محل ذكرها . تلك العوائد و الاخلاق ليست معروفة في الدين و لا هي موافقة لما يستحسنه العقلاء حتى من المصريين انفسهم و قل ما يشاهد مثلها عند غيرهم .

وقد ان الوقت على ما ظن لتربية نفوسنا تربية صحيحة متينة علمية . تربية تنشى رجالاتاً اولى علم و أصالة رأي يجمعون بين المعارف و الاخلاق و العلم و العمل . تربية تنقذنا من جميع العيوب التي يقذفنا بها الاجنبى في كل يوم و بكل لسان و كلها ترجع مهما اختلفت في الاسم الى سبب واحد و هو النقص في تربية نفوسنا . وقد اتفق جميع اهل النظر في مصر على ان التربية هي الدواء الوحيد لذلك الداء . و انتشر هذا الرأي الصائب في الكتب و الجرائد و احاديث المجالس حتى صح ان يقال انه اصبح رأياً عاماً . و تولد عن ذلك شعور بان مستقبل الامة تابع لتربيتها . ولكن ارى هم الناس موجهة الى التعليم و لا ارى احداً يلتفت الى تربية النفوس . و ارى ان الحرص على التعليم منحصر في تعليم الذكور . مع ان تهذيب الاخلاق مقدم على التعليم . و تعليم البنات مقدم على تعليم الذكور .

ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة و الرجل في التعليم فذلك غير

ضروري . وانما اطلب الآن ولا اتردد في الطلب ان توجد هذه المساواة في التعليم الابتدائي على الاقل . وان يعتنى بتعليمهن الي هذا الحد مثل ما يعتني بتعليم البنين .

أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فراه غير كاف . لانهن يتعلمن القراءة والكتابة بالعربية وبلغه اجنبية وشياً من الخياطة والتطريز والموسيقى ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها . وربما زادت تلك المعارف غروراً بانفسهن فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت ان يقول نهارك سعيد باللغة الفرنسية قد فاقت اترابها وارتفع شأنها وسما عقلها . ولا ننازل بعد ذلك لان تشغل بعمل من الاعمال المنزلية . فنقضي حياتها في تلاوة اقايصيص وحكايات قل ما تفيد الا في اثاره صور من الخيالات تطوف بها وتمثل لها عالماً لطيفاً تسرح

فيه طرفها وهي شاخصة الى دخان السجارة التي تقبض عليها

اكثر ما تعرفه المرأة التي يقال الآن انها متعلمة هو القراءة والكتابة وهذه واسطة من وسائل التعليم وليست غاية ينتهي اليها . وما بقي من معارفها فهي قشور تجمعا الحافظة في ريعان العمر ثم تنفلت منها واحدة بعد واحدة حتي لا يبق شي . اين هذه القشور من الحقائق العلمية التي يتغذى منها العقل ويتقوي بها على مطاردة الوهم ! - لاشي ينفع الانسان مثل اكتسابه ما يسمي عقلاً عملياً . اريد بذلك ما يقابل التخيل الذي يعيش به صاحبه في اوهام وهو اجس لا ترجع الى حق ثابت . فان

كل مصائب الانسان تأتي له من باب واحد وهو الخيال . كلما تجرد الانسان
عن الاوهام والخيالات قرب من السعادة ويبعد عنها بقدر ما يبعد

عن الحقيقة

الحقيقة هي ضالة الانسان في العالم ويجب عليه ان يسعى وراءها
بلا قصور ولا تعب . الحقيقة هي الكنز الذي اودع الله فيه كل آمال
الانسان لا يجدها الا من رغب فيها ومال عن سواها . الحقيقة هي مشرق
السعادة لانها الوسيلة وحدها لوصول الانسان الى كمال العقل والنفس .
والنساء مثل الرجال في الحاجة الى معرفة الحقيقة والى اكتساب عقل
سليم يحكم على نفوسهن ويرشدهن في الحياة الى الاعمال الطيبة النافعة
انظر الى الطفل تجده يشتهي وينفر ويحب ويكره ويفرح ويحزن
ويضحك ويبكي ويسكن ويغضب وهو في كل ذلك انما يفعل بحس
وينبعث بوهم وينقاد الى خيال . واذا اراد شيئاً فمعه عنه لم يستعمل
للاوصول الى غرضه الا شيئاً من الغش والمكر والكذب . لم ذلك ؟ لان
عقله ضعيف ومعارفه قليلة . ولم تصل قواه العقلية الى درجة تتمكن فيها
من القياس والموازنة بين الاعمال والرغائب والآلام حتي تحمله على
الصبر احياناً وطلب المرغوب من ابوابه ووسائله الصحيحة احياناً اخري :
والمرأة الجاهلة مثلها مثل الطفل فيما ذكرنا .

سلب الرجال ثقتهم من النساء واعتقدوا انهن اعوان ابليس . فلا
تسمع الا ذمّاً لخصالهن وتقيصاً لعقلهن وتحذيراً من مكرهن . وانا

لا ابري النساء الآن من هذه الصفات . ولكن اري ان التبعة ليست عليهن بل على الرجال

هل صنعنا شيئا لتحسين حال المرأة؟ هل قننا بما فرضه علينا العقل والشرع من تربية نفسها وتهذيب اخلاقها وتثقيف عقلها؟ أيجوز ان نترك نساءنا في حالة لا تمتاز عن حالة الانعام؟ أيصح ان يعيش النصف من امتنا في ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض لا يعرفن فيها شيئا مما يمر حولهن كما في الكتاب صم بكم عمي فهم لا يعقلون؟ أليس بينهن امهاتنا وبناتنا واخواتنا وزوجاتنا . وهن زينة حياتنا الدنيا والجزء الذي لا يمكن فصله منا دمنا من دمهن ولحمنا من لحمهن؟ أليس الرجال من النساء والنساء من الرجال وهن نحن ونحن هن؟ أيتم كمال الرجل اذا كانت المرأة ناقصة؟ وهل يسعد الرجال الا بالنساء؟

نحن حرمانا انفسنا من اكل لذة في الدنيا وهي التمتع بمحبة ذوي القربي من النساء .

كل منا يذوق حلاوة الساعات التي تمر به بدون ان يشعر بها حينما يطول الحديث بينه وبين صديق له وتختلط انفسهما ببعضها ببعض حتي يذهل كل عن ايها يتكلم وايها يسمع . فهذا السرور يتضاعف بلا شك اذا وجد هذا التوافق بين رجل وامه او اخته او زوجته . ولكن يحول الآن بيننا وبينهن عدم التوافق بين عقولنا وعقولهن ونفوسنا ونفوسهن ولهذا فانا نشفق عليهن ونحن اليهن ونعذرهن . ولكن

لا تكمل محبتنا لمن لان الحب التام هو ذلك التوافق . وهو
معدوم

والانسان محتاج الي ان يكون محباً وان يكون محبوباً . ومن فضل
الله عليه ان وضع بجانبه امهات وزوجات وغرس في قلوبهن محبته وفي
قلبه محبتهم وهذه اكبر نعمة من الله علينا بها . لان هذه المحبة النقية
الظاهرة الكاملة اذا صرفت فيما وضعت له كانت المسلية لنا في سجن
الحياة وهونت علينا الآلام والمصائب التي لولا هذه التسلية لافضت في
بعض الاوقات باقوي رجل منا الي اليأس . فعدم تقديرها قدرها
وانصراف العناية عن تميمها وتكميلها كفران بنعم الله وتقصير في شكره
بقي علينا ان ندفع اعتراضاً لا يمكننا السكوت عنه لانه في الحقيقة
هو المانع الوحيد الذي اتفقت اغلب العقول على وضعه حاجزاً يحول
بين المرأة والتعليم : وهو الخوف من ان التعليم يفسد اخلاقها .

رسخ في اذهان الرجال ان تعليم المرأة وعفتها لا يجتمعان . وقال
الاقدمون في ذلك اقوالاً طويلة وحكايات غريبة ونوادير سخيفة استدلوا
بها على نقصان عقل المرأة واستعدادها للغش والحيلة . فلو تعلمت لم
يزدها التعليم الا براعة في الاحتيال والخدعة واسترسالاً مع الشهوة .
فخذونا مثاهم واعتقدنا ان التعليم يزيد تفننها في المكر ويعطيها سلاحاً
جديداً نتقوي به طبيعتها الخبيثة علي ارتكاب المفسد .

اما أن المرأة الآن ناقصة العقل شديدة الحيلة فهذا مما

لا يختلف فيه اثنان . وقد بينا ان هذه الحالة هي اثر من آثار الجهل والانحطاط اللذين عاشت فيهما اجيالاً طويلة . وانه متى زال السبب فلا شك ان المسبب يتبعه . واما كون التعليم يفسد اخلاقها فهذا نكروه ونشدد النكير عليه . فان التعليم - خصوصاً اذا كان مصحوباً بتهديب الاخلاق - يرفع المرأة ويرد اليها مرتبتها واعتبارها ويكمل عقلها ويسمح لها ان تفكر وتأمل وتبصر في اعمالها . وان وقع ان امرأة تعرف القراءة والكتابة حادت عن الطريق المستقيم وخاطبت حبيبها بالرسائل الغرامية فقد وقع ان ألوفا من النساء الجاهلات دنسن عروضهن وكان الرسول يبنهن ويبن رفيقهن خادم او خادمة او دالة او جارة عجوز .

والحقيقة ان طهارة القلب في الغرائز والطبائع . فان كانت المرأة صالحة زادها علماً صلاحاً وتقوى . وان كانت فاجرة لم يزدها العلم فجوراً . وهكذا الحال في الرجال . وضلال فريق من الناس بضرب من ضروب التعليم لا يمنع من تعاطيه . فقد قال الله في شأن كتابه : « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا . وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ » . فاطر التعليم لا يمكن ان يكون ضرراً محضاً . ولا يمكن ان يكون منشئاً حقيقياً لضرر . والمرأة المنعلة تخشى عواقب الأمور اكثر مما تخشاه الجاهلة ولا تقدم بسهولة على ما يضر بحسن سمعتها . بخلاف الجاهلة فان من اخلاقها الطيش والخفة . وأذكر ملاحظة واحدة

تؤيد ما قدمته وهو ان نساء الافرنج على العموم مهما كان حالهن في الباطن يحافظن على الظواهر فيعيش الواحد بين رجل وامرأة يجب بعضهما بعضاً اياماً واشهراً ولا يكاد تقع منهما هفوة تظهر ما كان خافياً بينهما وتراهن في الطريق سائرات مرتديات بجلايب الجد والسكينة والوقار يعضن ابصارهن عن الرجال وان نظرن اليهم فمن طرف خفي . أما نساؤنا العفيفات فيغلب فيهن ان يكون باطنهن خيراً من ظاهرهن ومتى رأت الواحدة منهن رجلاً نظرت اليه وتأملتة والتفتت نحوه ولوت عنقها اليه ولا شعور لها بأن مثل هذه الحركات التي تصدر منها من غير تمييز تخل بشأنها وتحط من قيمتها واعتبارها . أما الفريق الآخر من النساء في بلادنا ممن طرحن العفة وجرين مع الشهوة فلا تسل عما يصدر منهن في الطرق والمجتمعات العامة من الامور المخلة بالادب التي يستحي القلم عن ان يجري برسمها : هذا الفريق من الاجانب يصعب تمييزه عن الحرائر الا ببعض امور يعرفها اهل الخلاعة

ثم ان البطالة التي ألفتها نفوس النساء عندنا وصارت كأنها من لوازم حياتهن هي ام الرذائل . ان كان نساؤنا لا يعملن شيئاً في المنازل ولا يحترفن بصنعة ولا يعرفن فناً ولا يشتغلن بعلم ولا يقرأن كتاباً ولا يعبدن الله فماذا يشتغلن حينئذ ؟ اقول لك وانت تعلم مثلى ان ما يشغل امرأة الغني والفقير والعالم والجاهل والسيد والخادم هو أمر واحد يتفرع الى مالا نهاية له ويتشكل في كل ان بشكل جديد وهو

ينبوع رضاها او سخطها على حسب الاحوال . ذلك الأمر هو علاقتها
مع زوجها . فتارة تُتخيل انه يكرهها . وتارة تظن انه يحبها . واحياناً
تقارنه بازواج جاراتها فيخرج من هذا الامتحان الصعب كاسباً او خاسراً
واحياناً تجرب ميله لتعلم هل تغير او هو باق . واحياناً تدبر طريقة
لتغيير قلبه على ذوى قرابته لتنزعه منه محبتهم ان كان ودوداً لهم . ولا
تغفل عن مراقبة سلوكه مع الخادمت وتراقب لحظاته عند دخول
الزائرات وتجعله دائماً موضوع الشك . ومن وسائل الاحتياط ان
لا تقبل الخادمة الا اذا كانت من شناعة الصورة وقبح المنظر وبشاعة
الهيئة بحيث يطمئن قلبها وتأمين ميل زوجها اليها . ولا تستريح من
هذا الشاغل الا اذا أفرغته في اذن اخرى من امثالها . فاذا فرغت من
تصويره في العبارات رجعت الى تمثيله في الخيالات وهكذا . لهذا
ترى اذا اجتمعت مع جاراتها وصواحباتها تصاعدت مع دخان السجاير
وبخار القهوة زفراتها وارتفع صوتها فتقص ما بينها وبين زوجها واقارب
زوجها واصحاب زوجها وحنينها وفرحها وهمها وسرورها وتفرغ كل ما في
صدرها حتى لا يبقى سر من اسرارها - ولو كان متعلقاً بالفراش - الا
وقد اخبرت به

هذا اذا كانت المرأة محبة لزوجها . اما اذا كانت لا تميل لزوجها
او كانت غير متزوجة فأكرر سؤالي بماذا تشتغل حينئذ؟ اما الاولى
فانها تفتكر في طريقة للخلاص من زوجها والبحث عن سواه . اما الثانية

فأعظم همها ان تشتغل كذلك بالبحث عن زوج اياً كان ولا تضع وقتها في حسن انتقاء الرجل الذي يصح ان يكون لها زوجاً فانها انما تطلب رجلاً . ومن البديهي ان المرأة التي يكون هذا حالها ان كانت فاسدة الاخلاق ووجدت فرصة لا تتأخر عن انتهازها ولا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد ان تقدم له افضل شيء لديها وهو نفسها .

وعلى خلاف ذلك يكون امر النساء المتعمات . اذا جري القدر عليهن بامر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك الا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام باحوال المحبوب وشماله وصفاته فنتخاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت وهي تحاذران تضع ثقتها في شخص لا يكون اهلاً لها ولا تسلم نفسها الا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها على حسب الامزجة . وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف وتخفي ما في نفسها عن اخص الناس بها

والمعول في كل ذلك هو كما ذكرته فيما مضى على الاخلاق التي نشأت عليها المرأة في تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على ان تشغل اوقاتها بالمطالعة ومزاولة الاعمال المنزلية وترتبت بين اهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجدد والاستقامة وغاب من بينهم كل ما يوثر في مشاعرهما اثرأ غير صالح او يهيج حسها الى امر غير لائق وتعودت على ان تقيم من عقلها حاكماً على قواها الحسية — كان من النادر ان

تجيد عن الطريق المستقيم وان تلقي بنفسها في غمرات الشهوات التي
لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم

وبالجملة فانا نرى ان تربية العقل والاخلاق تصون المرأة ولا

يصونها الجهل . بل هي الوسيلة العظمى لان يكون في الامة نساء

يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى ان من يعتمد على

جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما ان يتردياً في اول

حفرة تصادفهما في الطريق

حجاب النساء

سبق لي البحث في الحجاب بوجه اجمالي في كتاب نشرته باللغة الفرنسية من اربع سنين مضت رداً على الدوك داركور و بينت هناك اهم المزايا التي سمح لي المقام بذكرها ولكن لم اتكلم فيما هو الحجاب ولا في الحد الذي يجب ان يكون عايه . وهنا اقصد ان اتكلم في ذلك

ربما يتوهم ناظر اني ارى الآن رفع الحجاب بالمرّة . لكن الحقيقة غير ذلك . فاني لا ازال ادافع عن الحجاب واعتبره اصلاً من اصول الادب التي يلزم التمسك بها . غير اني اطلب ان يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الاسلامية . وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملاً بالاحكام حتي تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الامة

والذي أراه في هذا الموضوع هو ان الغربيين قد غلوا في اباحة
 التكشف للنساء الى درجة يصعب معها ان تتصون المرأة من التعرض
 لمثارات الشهوة ولا ترضاه عاطفة الحياء . وقد تعالينا نحن في طلب
 التمجيد والتخرج من ظهور النساء لآ عين الرجال حتي صيرنا المرأة
 أداة من الادوات او متاعاً من المقتنيات وحرمانها من كل المزايا
 العقلية والادبية التي اعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية . وبين هذين
 الطرفين وسط سنينه - هو الحجاب الشرعي - وهو الذي ادعوا اليه
 اني اشعر ان القاريء الذي سار معي الى هذه النقطة وتبعني فيما
 دعوته اليه من وجوب تربية النساء ربما يستجمع قواه لمقاومتي فيما
 اطلب من الرجوع بالحجاب الى الحد الشرعي ويستنجد بجميع الاوهام
 التي خزنتها في ذهنه اجيال طويلة ليدافع عن العادة الراسخة الان .
 ولكن مهما اسنجم من قوة الدفاع عنها ومهما بذل من الجهد للمحافظة
 عليها فلا سبيل الى ان تبقى زمناً طويلاً

ماذا تفيد الشجاعة والثبات في المحافظة على بناء آل أمره الى
 الخراب والتهدم وقد انقضَّ اساسه وانحلت مواده ووصل حاله من
 الاضمحلال الي انك ترى في كل سنة تمر جزءاً منه ينهار من نفسه ؟ أليس
 هذا كله صحيحاً ؟ أليس حقاً ان الحجاب في هذه السنين الاخيرة
 ليس كما كان من عشرين سنة ؟ أليس من المشاهد ان النساء في كثير
 من العائلات يخرجن لقضاء حاجتهن ويتعاملن بانفسهن مع الرجال

فما يتعلق بشؤونهن و يطلبن ترويح النفس حيث يصفوا الجو و يطيب
 الهواء و يصحبن ازواجهن في اسفارهم . و نرى ان هذا التغير حدث في
 عائلات كانت اشد الطبقات تحرجاً من ظهور النساء ؟ اذا قارنا بين
 ما شاهد اليوم و بين ما كان عليه النساء من عهد ليس بالبعيد عنا حيث
 كان يشين المرأة أن تخرج من بيت زوجها . وان يري طولها اجنبي
 و كان اذا عرض للمرأة سفر اتخذ كل احتياط ليكون سفرها ليلاً حتي
 لا يراها احد من الناس . و حيث كانت ام الرجل او اخته او بنته تستحي
 ان تجلس معه على مائدة واحدة - اذا قارنا بين هذا و ذلك نجد
 بلا شك ان هذه العادة آخذة في الزوال من نفسها

و كل من عرف التاريخ يعلم ان الحجاب دور من الادوار
 التاريخية لحياة المرأة في العالم . قال لا روس تحت كلمة خمار : " كانت
 نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن و يخفين وجههن بطرف منه كما
 هو الان عند الامم الشرقية " . و قال : " ترك الدين المسيحي للنساء خمارهن
 و حافظ عليه عند ما دخل في البلاد فكن يعظيبن رؤوسهن اذا خرجن
 في الطريق وفي وقت الصلاة . و كانت النساء تستعمل الخمار في القرون
 الوسطى خصوصاً في القرن التاسع . فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة
 و يجر على الارض تقريباً . و استمر كذلك الى القرن الثالث عشر حيث
 صارت النساء تخفف منه الى ان صار كما هو الآن نسيجاً خفيفاً
 يستعمل لحماية الوجه من التراب و البرد . و لكن بقي بعد ذلك يزمن

في اسبانيا وفي بلاد امريكا التي كانت تابعة لها «
ومن هذا يرى القاريء ان الحجاب الموجود عندنا ليس خاصاً
بنا ولا ان المسلمين هم الذين استحدثوه . ولكنه كان عادة معروفة عند
كل الامم تقريباً ثم تلاشت طوعاً لمقتضيات الاجتماع وجرى على
سنة التقدم والترقي . وهذه المسئلة المهمة يلزم البحث فيها من جهتها
الدينية والاجتماعية :

« الجهة الدينية »

لو أن في الشريعة الاسلامية نصوصاً تقضى بالحجاب على ما هو
معروف الآن عند بعض المسلمين لوجب على اجتناب البحث فيه ولما
كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص مهما كانت مضرّة في ظاهر الامر
لان الاوامر الالهية يجب الاذعان لها بدون بحث ولا مناقشة . لكننا
لانجد نصاً في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة .
وانما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الامم فاستحسنوها
واخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين كسائر العادات الضارة
التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها . ولذلك لانرى
مانعاً من البحث فيها بل نرى من الواجب ان نلم بها ونبين حكم الشريعة
في شأنها وحاجة الناس الى تغييرها .

جاء في الكتاب العزيز :

«قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . وَلَا يَضْرِبْنَ بِجُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»

أباحَت الشريعة في هذه الآية للمرأة ان تظهر بعض اعضاء من جسمها أمام الاجنبي عنها غير انها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء انها وكلت فهمها وتعيينها الى ما كان معروفاً في العادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على ان الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية ووقع الخلاف بينهم في اعضاء آخر كالزراعين والقدمين .

جاء في بن عابدين : «وعورة الحرة جميع بدنها حتى شعرها النازل في الأصح خلا الوجه والكفين والقدمين على المعتمد . وصوتها على الراجح وزراعيتها على المرجوح . وتمنع المرأة الشابة من كشف الوجه لأنه عورة بل لحوف الفتنة كسه وان أمن الشهوة لانه اغلظ ولذلك ثبتت به حرمة المصاهرة كما يأتي في الحظر . ولا يجوز النظر

تحرير المرأة

اليه بشهوة كوجه أمرد . فانه يحرم النظر اى وجهها ووجه الامرء اذا شك فى الشهوة . اما باءونها فى باء ولوءمببلاً « (١)
 وء ذكر فى كتاب الروء فى المءهء الشافعى : « نَظَرُ الوءه
 والءففىء عءء آمن الفءءة من المرأة للرجل وعكسه باءز . وبعوز نَظَرُ
 وءه المرأة عءء المعاملة وءءء ءحمل الشهادة . وءكف كشفه عءء
 الأءاء » (٢)

وءاء فى ءببب الحقائق شرح كءز الءقائق لعءماء بن على
 الزبلى : « وءءن الءرة عورة الا وءهها وكفها وقءمببها لقوله ءعالى
 « ولا ببءبب زببءهنا الا ماظهر منها » والمراء محل زببءهنا وماظهر منها
 الوءه والءفان . قاله بن عباس وبن عمر . واستءنى فى المءءصر الاءضاء
 الءالءة للابءلاء باءءاءها ولانه علىه الصلاء والسلام نهى المءرمة
 عن لبس القفازبب والنقاب . ولو كان الوءه والءفان من العورة لما
 ءرم سءرها بالمءبب . وفى القءم روابءان والأصح انها لبسء بعورة
 للابءلاء باءءاءها » (٣)

وءم الوءه والءفبب وانها لبسء بعورة معروف كءلك عءء
 المالكبة والءنابلة . ولانطببب الكلام بنقل نصوص أهل هءببب المءهببب
 ومما ربوى عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : « ان اسماء بنت ابب
 بكر ءءلت على رسول الله صلى الله علىه وسلم وعلىها ءباب رقاق فقءل

« ١ » صحبفة ٣٣٦ ءزء ١ « ٢ » صحبفة ١٠٩ و ١٠٤ ءزء ٢

« ٣ » صحبفة ٩٦ ءزء ٣

لها يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يري منها الا هذا وهذا وأشار الى وجهه وكفيه . وورد ايضاً في كتاب حسن الاسوة للسيد محمد صديق حسن خان بهادر : « وانما رُخص للمرأة في هذا القدر لأن المرأة لا تجد بدا من مزاوله الاشياء ييديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والزواج . وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن » (١)

خولت الشريعة للمرأة ما للرجل من الحقوق وألقت عليها تبعة اعمالها المدنية والجنائية فللمرأة الحق في ادارة اموالها والتصرف فيها بنفسها . فكيف يمكن لرجل ان يتعاقد معها من غير ان يراها ويتحقق شخصيتها ؟

ومن غريب وسائل التحقق ان تحضر المرأة مغلقة من رأسها الى قدميها او تقف من وراء ستار او باب ويقال للرجل ها هي فلانة التي تريد ان تبيعك دارها او تقيمك وكيلاً في زواجها مثلاً . فتقول المرأة بعث او وكتت ويكتفي بشهادة شاهدين من الأقارب او الاجانب على انها هي التي باعت او وكتت والحال انه ليس في هذه الاعمال ضمانة يطمئن لها احد . وكثيراً ما أظهرت الوقائع القضائية سهولة استعمال الغش والتزوير في مثل هذه الاحوال . فكم رأينا ان امرأة تزوجت بغير علمها وأجرت املاكها بدون شعورها . بل تجردت من كل ماتملكه

على جهل منها . وذلك كله ناشئ من تحجبها وقيام الرجال دونها
يحولون بينها وبين من يعاملها .

كيف يمكن لامرأة محجوبة ان تتخذ صناعة او تجارة للتعيش منها
ان كانت فقيرة ؟ كيف يمكن لخادمة محجوبة ان تقوم بخدمة بمنزل
فيه رجال ؟ كيف يمكن لتاجرة محجوبة ان تدير تجارتها بين الرجال ؟
كيف يتسنى لزراعة محجوبة ان تفلح ارضها وتحصد زرعها ؟ كيف
يمكن لعاملة محجوبة ان تباشر عملها اذا أُجرت نفسها للعمل في بناء بيت
او نحوه ؟

وبالجملة فقد خلق الله هذا العالم ومكن فيه النوع الانساني ل يتمتع
من منفعه بما تسمح له قواه في الوصول اليه . ووضع للتصرف فيه
حدوداً تتبعها حقوق . وسوّى في التزام الحدود والتمتع بالحقوق بين
الرجل والمرأة من هذا النوع . ولم يقسم الكون بينهما قسمة افراز .
ولم يجعل جانباً من الارض للنساء يتمتع بالمنافع فيه وحدهن . وجانباً
للرجال يعملون فيه في عزلة عن النساء . بل جعل متاع الحياة مشتركاً
بين الصنفين شائعاً تحت سلطة قواهما بلا تمييز - فكيف يمكن مع هذا
لامرأة ان تتمتع بما شاء الله ان تتمتع به مما هيأها له بالحياة ولو احقها من
المشاعر والقوى وما عرضه عليها لتعمل فيه من الكون المشترك بينها وبين
الرجال اذا حُظر عليها ان تقع تحت اعين الرجال الامن كان من محارمها ؟
لا ريب ان هذا مما لم يسمح به الشرع ولن يسمح به العقل . لهذا رأينا

ان الضرورة أحالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند اغلب الطبقات من المسلمين كما نشاهده في الخاديات والعاملات وسكان القرى حتى من اهل الطبقة الوسطى بل وبعض اهل الطبقة العليا من اهل البادية والقرى : والكل مسلمون بل قد يكون الدين امكن فيهم منه في اهل المدن !

اذا وقفت المرأة في بعض مواقف القضاء خصاً او شاهداً كيف ان يسوغ لها ستروجهما ؟ مضت سنون والخصوم وقضاة المحاكم انفسهم غافلون عما يهيم في هذه المسئلة متساهلون في رعاية الواجب فيها . فهم يقبلون ان تحضر المرأة امامهم مستترة الوجه وهي مدعية او مدعى عليها او شاهدة وذلك منهم استسلاماً للعوائد . وليس بخاف ما في هذا التسامح من الضرر الذي يصعب استمراره فيما اظن . ذلك لعدم الثقة بمعرفة الشخص المسترولما في ذلك من سهولة الغش . كل رجل يقف مع امرأة موقف المخاصمة من همه ان يعرف تلك التي تخاصمه وله في ذلك فوائد كثيرة من اهمها صحة التمسك بقولها . ولا اظن انه يسوغ للقاضي ان يحكم على شخص مستر الوجه ولا ان يحكم له . ولا اظن انه يسوغ له ان يسمع شاهداً كذلك . بل اقول ان اول واجب عليه ان يتعرف وجه الشاهد والخصم خصوصاً في الجنائيات . والافاي معنى لما أوجبه الشرع والقانون من السؤال عن اسم الشخص وسنه وصناعته ومولده؟ وماذا تفيد معرفة هذه الامور كلها اذا لم يكن معروف بشخصه؟

والحكمة في ان الشريعة الغراء كلفت المرأة بكشف وجهها عند تأدية الشهادة كما مر ظاهرة . وهي تمكن القاضي من التفرس في الحركات التي تبدو على الوجه والعلامات التي تظهر عليه فيقدر الشهادة بذلك قدرها .

لا ريب ان ما ذكرنا من مضار التحجب يندرج في حكمة اباحة الشرع الاسلامي لكشف المرأة وجهها وكفيها — ونحن لا نريد اكثر من ذلك .

واتفق أئمة المذاهب ايضاً على انه يجوز للخطاب ان ينظر الى المرأة التي يريد ان يتزوجها . بل قالوا بنديه عملاً بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال لاحد الانصار — وكان قد خطب امرأة — : « أنظرت اليها » — قال لا — قال : « انظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما » . هذه هي نصوص القرآن وروايات الأحاديث واقوال أئمة الفقه كلها واضحة جلية في ان الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها وذلك للحكم التي لا يصعب ادارتها على كل من عقل

هذا حكم الشريعة الاسلامية كله يسر لا عسر فيه لا على النساء ولا على الرجال . ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيه من الحرج عليهما في المعاملات والمشقة في اداء كل منها ما كلف به من الاعمال سواء كان تكليفاً شرعياً او تكليفاً قضت به ضرورة المعاش اما دعوى ان ذلك من آداب المرأة فلا إخالها صحيحة لأنه

لأصل يمكن ان ترجع اليه هذه الدعوى . وأى علاقة بين الأدب وبين كشف الوجه وستره ؟ وعلى أى قاعدة بنى الفرق بين الرجل والمرأة ؟ أليس الأدب فى الحقيقة واحدا بالنسبة للرجال وللنساء وموضوعه الأعمال والمقاصد لا الأشكال والملابس ؟

وأما خوف الفتنة الذى نراه يطوف فى كل سطر مما يكتب فى هذه المسئلة تقريرا فهو أمر يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال وليس على النساء تقديره ولا هن مطالبات بمعرفته . وعلى من يخاف الفتنة من الرجال ان يغض بصره كما انه على من يخافها من النساء ان تغض بصرها . والأوامر الواردة فى الآية الكريمة موجهة الى كل من الفريقين بغض البصر على السواء . وفى هذا دلالة واضحة على ان المرأة ليست بأولى من الرجل بتغطية وجهها .

عجبا ! لم تؤمر الرجال بالتبرقع وستر وجوههم عن النساء اذا خافوا الفتنة عليهن ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل اضعف من عزيمة المرأة واعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه والحكم على هواه . واعتبرت المرأة اقوى منه فى كل ذلك حتى ابيح للرجال ان يكشفوا وجوههم لأعين النساء مهما كان لهم من الحسن والجمال . ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً خوف ان ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل فيسقط فى الفتنة بأية امرأة تعرضت له مهما . قيم الصورة وبشاعة الخلق ؟ . ان زعم زاعم صحة هذا

الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بان المرأة أكمل استعداداً من الرجل فلم
توضع حينئذ تحت رقعته في كل حال؟ فان لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً فلم
هذا التحكم المعروف؟

على ان البرقع والنقاب مما يزيد في خوف الفتنة . لأن هذا
النقاب الابيض الرقيق الذي تبدو من ورائه المحاسن وتختفي من خلفه
العيوب . والبرقع الذي يختفي تحته طرف الانف والشم والشدقان
ويظهر منه الجبين والحواجب والعيون والحدود والاصداغ وصفحات
العنق — هذان الساتران يعدان في الحقيقة من الزينة التي تحت رغبة
الناظر وتحمله على اكتشاف قليل خفي بعد الافتتان بكثير ظهر . ولو
ان المرأة كانت مكشوفة الوجه لكان في مجموع خلقها ما يرد في الغالب
البصر عنها

ليست اسباب الفتنة ما يبدو من اعضاء المرأة الظاهرة . بل من اهم
اسبابها ما يصدر عنها من الحركات في اثناء مشيتها وما يبدو من
الافاعيل التي ترشدها في نفسها . والنقاب والبرقع من اشد اعوان
المرأة على اظهار ما تظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة . لانها يخفيان
شخصيتها فلا تخاف ان يعرفها قريب او بعيد فيقول فلانة ابنت
فلان او زوجة فلان كانت تفعل كذا . فهي تأتي كل ما تشتهي من
ذلك تحت حماية ذلك البرقع وهذا النقاب . اما لو كان وجهها مكشوفاً
فان نسبتها الى عائلتها او شرفها في نفسها يشعراها الحياء والخشوع

ويعننا من ابداء حركة او عمل يتوهم منه ادنى رغبة منها في استلفات
النظر اليها .

والحق ان الانتقاب والتبرقع ليسا من المشروعات الاسلامية
لالتعبد ولا للأدب بل هما من العادات القديمة السابقة على الاسلام
والباقية بعده . ويدلنا على ذلك ان هذه العادة ليست معروفة في
كثير من البلاد الاسلامية وانها لم تنزل معروفة عند اغلب الامم
الشرقية التي لم تتدين بدين الاسلام

انما من مشروعات الاسلام ضرب الخمر على الجيوب كما هو
صريح الآية وليس في ذلك شيء من التبرقع والانتقاب .

هذا ما يتعلق بكشف الوجه واليدين . اما ما يتعلق بالحجاب
بمعنى قصر المرأة في بيتها والحظر عليها ان تخالط الرجال فالكلام فيه
ينقسم الى قسمين : ما يخص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم . وما يتعلق
بغيرهن من نساء المسلمين . ولا أثر في الشريعة لغير هذين القسمين
اما القسم الاول فقد ورد فيه ما يأتي من الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم .
واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . ذلك أطهر لقلوبكم
وقلوبهن . وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تكفوا من بعده
ابداً . ان ذلكم كان عند الله عظيماً » .

« يانساء النبي لستن كأحد من النساء . ان اتقين فلا

تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا
وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى «

ولا يوجد اختلاف في جميع كتب الفقه من اى مذهب كانت
ولا في كتب التفاسير في ان هذه النصوص الشريفة هي خاصة بنساء
النبي صلى الله عليه وسلم . أمرهن الله سبحانه وتعالى بالتجرب و بين
لنا سبب هذا الحكم وهو انهن لسن كأحد من النساء . ولما كان الخطاب
خاصاً بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت اسباب التنزيل خاصة
بهن لا تنطبق على غيرهن فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بواجب على
احد من نساء المسلمين . (١)

واما القسم الثاني فغاية ماورد في كتب الفقه عنه حديث عن
النبي صلى الله عليه وسلم نهى فيه عن الخلوة مع الاجنبي وهو :
« لا يخلون رجل بامرأة الا مع ذي محرم » قال بن عابدين : « الخلوة
بالأجنبية حرام الا للملازمة مديونة هربت ودخلت خربة او كانت
عجوزاً شوهاء او بجائل — وقيل الخلوة بالأجنبية مكروهة كراهة
تحريم . وعن ابى يوسف ليست بتحريم » (٢)

وقال : « ان الخلوة المحرمة تنتفى بالحوائل وبوجود محرم او امرأة
ثقة قادرة — وهل تنتفى ايضاً بوجود رجل آخر ؟ لم أره » (٣)
ربما يقال ان ما فرضه الله على نساء نبيه يستحب اتباعه لنساء

« ١ » صحيفة ١٢٦ من كتاب حسن الاسوة « ٢ » صحيفة ٣٢٣ جزء خامس

« ٣ » صحيفة ٣٢٤ جزء خامس

المسلمين كافة - فنجيب ان قوله تعالى « لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ » يشير الى عدم الرغبة في المساواة في هذا الحكم وينبهنا الى ان في عدم الحجاب حكماً ينبغي لنا اعتبارها واحترامها وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الاسوة . وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير او تخفيف كذلك لا يحمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق او تعطيل لشيء من مصالح الحياة وعلى هذا وردت آيات الكتاب المبين . قال تعالى :
 « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وقال : « ما جعل عليكم في الدين من حرج » . وقال ايضاً : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » . ولو كان اتباع الاسوة مطلوباً في مثل هذه الحالة لمارأينا احد الخلفاء المشهورين بشدة التقوى والتمسك بالسنة يجري في عائلته على ما يخالف الحجاب . وأستدل على ذلك بذكر الواقعة الآتية :
 بعث سلمة بن قيس برجل من قومه يخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بواقعة حرية . فلما وصل ذلك الرجل الى بيت عمر قال :
 « فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكئ على وسادتين من ارم محشوتين ليفاً فنبذ اليّ باحديهما فجلست عليها واذا به في صفة فيها بيت عليه ستير فقال : « يا أم كلثوم غداءنا »
 فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق . فقال : « يا أم كلثوم الا تخرجين الينا تأكلين معنا من هذا ؟ » قالت : « اني اسمع عندك حسّ رجل » . قال : « نعم ولا اراه من اهل البلد » . قال فذلك حين عرفت انه

لم يعرفني قالت: « لو اردت ان اخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته » - قال: « او ما يكفيك ان يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر » - فقال كل فلو كانت راضية لأطعمتك اطيب من هذا « (١)
وفضلاً عن كون الشرع لا يوجب ذلك الحجاب فإنه مجرد عن الفائدة بل فيه مضرات شتى تأتي على بيانها في البحث الآتي :

٢

« الجهة الاجتماعية »

انا نطلب تخفيف الحجاب ورده الى احكام الشريعة الاسلامية لا لاننا نميل الى تقليد الأمم الغربية في جميع اطوارها وعوائدها لمجرد التقليد او للتعلق بالجديد لانه جديد . فاننا نتمسك بعوائدنا الاسلامية ونحترمها ونرى أنها مزاج الأمة التي نتمسك به اعضاؤها ولسنا ممن ينظر اليها نظره الى الملابس يخلع ثوباً كل يوم ليلبس غيره . وانما نطلب ذلك لاننا نعتقد ان لرد الحجاب الى اصله الشرعي مدخلا عظيماً في حياتنا المعاشية . لسنا في مقام استجسان أمر واستقباح آخر لما فيه من موافقة الذوق او منافرتة . وانما نحن بصدده ما به قوام حياة المرأة او ما به قوام حياتنا . كلاً منا الآن في هل يلزمنا ان نعيش ونحيى او نقضي على انفسنا بأن نموت ونفنى؟ هل علينا ان نهتم مكاننا ونرضى بما وجدنا عليه اباؤنا

(١) صحيفة ٢٧١٦ تاريخ الطبري جزء خامس

والناس من حولنا يتسابقون الى منابع السعادة وموارد الرفاهية ومعاهد القوة ويمرون علينا سراعاً ونحن شاخصون اليهم اما غير شاعرين بموقفنا واما شاعرين ولكننا حيارى ذاهلون ؟ او من الواجب علينا ان ننظر كيف تقدم الناس وتأخرنا . كيف نقووا وضعفنا . كيف سعدوا وشقينا . ثم نرجع ابصارنا كرة ثانية في ديننا وما كان عليه اسلافنا الصالحون . ثم نقتدي بهم في استماع القول واتباع احسنه وانتقاد الفعل والأخذ بأفضله ونسير في طرق السعادة والارتقاء والقوة مع السائرين ؟ ذلك هو الامر الخطير الذي وجهنا اليه نظرنا .

ها هي مسألة الحجاب مسألة من أهم المسائل ولها مكان عظيم في شؤون الأمة . اذا ترك القاريء نفسه لعواطفه واستسلم الى عوائده ظهر له الحجاب في مظهر حسن لانه ألفه في صغره ونشأ بين المحجبات وعاش معهن حتى صار ذلك عادة مألوفاً له . ثم انه ورثه عن آباءه واجداده فلا يستغربه بل يميل اليه ميلاً غريزياً ليس للعقل فيه مدخل وانما هو حركة ميكانيكية ليس الا . وأما اذا نزع من نفسه العوامل التي احدثت فيه تلك العواطف وخلع ما البسه اياه اسلافه من أردية الوراثة وبحث في المسئلة من جميع جهاتها بحث من لم يتأثر الا بالتجربة التي تجري في الوقائع الصحيحة وحصل لنفسه رأياً من ملاحظاته الشخصية . وكان ممن تجذب نفسه الى الحق وتنبعث الى السعي للوقوف عليه وتأيدته لما له عندها من المنزلة العلية والمكان الرفيع . وكان لا يغش

نفسه بالتزويق والتزيين الوهميين وانما يسمع صوت وجدانه السليم ويرجحه على كل هوى سواه مهما كانت درجته من التمكن فيمن حوله من الناس — فعند ذلك يرى ان المرأة لا تكون ولا يمكن ان تكون وجوداً تاماً الا اذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها المنوحة لها بمقتضى الشرع والفطرة معاً ونمت ملكاتها الى اقصى درجة يمكنها ان تبلغها . ويرى أن الحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارترقاءها وبذلك يحول بين الأمة ونقدمها .

بيننا عند الكلام على تربية المرأة مالها من المزايا الجليلة والآثار الحسنة التي نترتب عليها في شؤونها نفسها وشؤون بيتها وفي الاجتماع الذي هي فيه . وذكرنا ان من اكبر اسباب ضعف الامة حرمانها من اعمال النساء وان تربية الطفل لا تصلح الا اذا كانت أمه مربية . وقررنا ان الولد ذكراً كان او أنثى لا يملك صحة ولا خلة ولا ملكة ولا عقلاً ولا عاطفة الا من طريقين : الوراثة والتربية . واستدلنا على ان الولد يرث من امه قدر ما يرث من والده على الاقل . وان تأثير الأم في تربية الطفل بعد ولادته اعظم من تأثير ابيه . ونريد ان نبرهن هنا على ان تربية الأم نفسها لا يمكن ان تتم اذا استمر حجاب النساء على ما هو عليه الان حتى اذا انتهى القاريء من تلاوة هذا الباب رأى كيف ترتبط المسائل بعضها ببعض وكيف ان اصغرها يتوقف عليه اعظمها :

اذا أخذنا بنتاً وعلناها كل ما يتعلمه الصبي في المدارس الابتدائية

وربينها على اخلاق حميدة ثم قصرناها في البيت ومنعناها عن مخالطة الرجال فلا شك انها تنسى بالتدريج ما تعلمته وتغير اخلاقها على غير شعور منها وفي زمن قليل لانجد فرقاً بينها وبين اخرى لم تتعلم أصلاً . ذلك لأن المعارف التي يكسبها الانسان وهو في سن الصبا لا يحيط بدقائقها ومناشئها ولذلك لا يكون علمه فيها علماً تاماً كاملاً .
وانما يتم له شيء من ذلك اذا بلغ سن الرجولية واستمر على مزاولة العمل والاشتغال . فالصبي يحفظ اسماء الاشياء اكثر مما يفهم معانيها وأكبر فائدة يستفيدها في هذا الطور من التعليم انما هي التعود على العمل وحب استطلاع الحقائق والاستعداد للدراسة . فان وقف سير التعليم في هذا السن اضمحلت المعلومات المستفادة وانتثرت من الذهن شيئاً فشيئاً وكان ماضى من الوقت في التعلم زمناً ضائعاً .

ولما كان السن الذي تجب فيه المرأة وهو ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرها هو السن الذي يبتيء فيه الانتقال من الصبا الى الرجولية وتظهر فيه حاجة المرأة كما تظهر حاجة الرجل الى اختبار العالم والبحث في الحياة وما تستدعيه . وهو السن الذي تزهر فيه الملكات وتظهر الميول والوجدانات . وهو السن الذي يتعلم فيه الانسان نوعاً آخر من العلم انفس مما تعلمه في المدارس وهو علم الحياة وطريق تحصيل ذلك العلم انما هو بالاختلاط مع الناس واختبارهم واستعراف اخلاقهم . وفي هذا السن يبتيء الانسان يعرف شعبه وملته ووطنه

ودينه وحكومته . وفي هذا السن يتبدى استعداد كل شخص وميله وكفاءته في الظهور فيندفع الى الأعمال اندفاع الماء في المنحدرات . وهو سن الآمال والرغائب والنشاط — فان حجبت فيه الفتاة وانقطعت عن هذا العالم بعد ان كانت المواصلة بينه وبينها مستمرة وقف نموها بل رجعت القهقري وفقدت كل ما كان يزين نفسها ونسيت كل معارفها وخابت كل مساعيها وضاعت آمالها وآمال الناس فيها : ولا ذنب عاينها في ذلك فهي عاجزة مسكينة قضت عليها عادة سخيفة بالحرمان الموبد من الترقى والكمال .

ربما يقال ان في طوع المرأة وامكانها ان تستكمل تربيتها وتتم دراستها في بيتها وهو وهم باطل . فان الرغبة في اكتساب العلم والتشوف لاستطلاع ما عليه الناس في احوالهم واعمالهم وحب استكشاف الحقائق وكل ما يستميل النفس الى المطالعة والدرس لا يتوفر للمرأة مع حجابها . ذلك لان الحجاب يجبس المرأة في دائرة ضيقة فلا ترى ولا تسمع ولا تعرف الا ما يقع فيها من سفساف الحوادث ويجول بينها وبين العالم الحي وهو عالم الفكر والحركة والعمل فلا يصل اليها منه شيء وان وصل اليها بعضه فلا يصل الا محرفاً مقلوباً . اما اذا استمرت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي فانها تكتسب بالنظر في حوادثه وتجربة ما يقع فيه معارف غزيرة تنبت فيها من المخالطات والمعاشرات والمشاهدة والسماع ومشاركة العالم في جميع مظاهر الحياة . وقد يكفى في اعانتها

على كسب ذلك كله والانتفاع منه ما حصلته بالتعلم من المعارف الأولى
وربما يمكنها أن تستغنى عن تعلم تلك المعارف الأولى إذا حسنت
الفطرة وجادت القرينة

وعلى فرض ان المرأة يمكنها في احتجابها ان تستكمل ما نقص منها
علمًا وأدبًا بقراءة الكتب فمن البديهي ان كل ما تحصله من الكتب يعد
من قبيل الخيالات ان لم تمكنه التجربة ويؤكده العمل . ولو عاملنا اخوتها
الصبيان كما نعاملها وحجبناهم في البيوت حتى بلغوا سن الخامسة عشرة
لكانت النتيجة واحدة . بل لو أخذنا رجلا بلغ الاربعين من عمره
وحجبناه عن العالم وألزمناه ان يعيش بين اربعة جدران وسط النساء
والاطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجي في قواه العقلية والأدبية
ولا بد ان يأتي يوم يجد فيه نفسه مساويا لهم . فاذا يكون من الخطأ
أن نتصور اننا متى علمنا بناتنا جاز لنا ان نحجبهن متى بلغن سنًا مخصوصاً
وان مجرد ذلك التعليم الأول يكفي في التوقي من الضرر . لان الضرر
في الحجاب عظيم وهو ضياع ما كسبته بالتعلم وحرمانهن من الترقى في
مستقبل العمر والأمر في ذلك واضح لا يحتاج الى دليل . ويكفي ان
نرجع الى أنفسنا ونخطر ببالنا ما كنا عليه في الخامسة عشرة من عمرنا
فيتبين لنا اننا كنا أشبه بالاطفال لا نكاد نعلم شيئاً من العالم ولا
نعرف للحياة قيمة ولا نميز كمال التمييز ما لنا وما علينا ولا تمتاز لدينا
حقوقنا وواجباتنا وليس لنا عزيمة ثابتة في مجاهدة أنفسنا . وان أكبر
تحرير المرأة

عامل له أثر في تكميلنا هو استمرار تعلمنا وتربية عقولنا ونفوسنا استمراراً
لا انقطاع معه . وان ذلك لم يتم لنا بقراءة الكتب بل بالمشاهدة
والممارسة والمخالطة وتجربة الناس والحوادث
وفي الحقيقة ان تربية الانسان ليس لها سن معين تنقطع بعده ولا
حد معروف تنتهي عنده . فهي لا تنال بحفظ مقدار من العلوم والمعارف
يجهد الانسان نفسه في اكتسابه في سنين معدودة ثم يقضى حياته
بعد ذلك في الراحة .

التربية ليست ذلك الشيء البسيط الذي يفهمه عامة الناس حيث
يتصورون انها عبارة عن تخزين كمية من المعارف المقررة في برامج
المدارس ثم امتحان ثم شهادة ليس بعدها الا البطالة والجمود . وانما التربية
هي العمل المستمر الذي نتوسل به النفس الى طلب الكمال من كل
وجوهه . وهذا العمل لا بد منه في جميع ادوار الحياة حيث يبتدىء
من يوم الولادة ولا ينتهي الا بالموت .

واذا أراد القارئ ان يتبين صحة ما اسلفته من مضار الحجاب
على وجه لا يبقى للريب معه مجال فما عليه الا ان يقارن بين امرأة من
أهلها تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات في المدن لم
يسبق لها تعليم . فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة
اجنبية وتلعب البيانو ولكنها جاهلة بأطوار الحياة بحيث لو استقلت
بنفسها لعجزت عن تدبير امرها وتقويم حياتها . وان الثانية مع جهلها قد

أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوي والحوادث التي مرت عليها وان كل ذلك قد أفادها اختباراً عظيماً : فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى .

ومن هذا نرى اغلب نساء نصارى الشرق وان لم يتعلمن في المدارس اكثر مما يتعلمه بعض بناتنا الآن فهن يعرفن لوازم الحياة لكثرة ما رأين وسمعن باختلاطهن بالرجال فقد ورد على عقولهن معان وافكار وصور وخواطر غير ما استفدته من الكتب فارتفعن بفضل هذا الاختلاط الى مرتبة أعلى من المرأة المسلمة المواطنة لهن مع انهن من جنس واحد واقليم واحد .

نرى في المرأة عندنا من الاستعداد الطبيعي ما يؤهلها لان تكون مساوية لغيرها من الأم الأخرى لكنها اليوم في حالة انحطاط شديد . وليس لذلك سبب آخر غير كوننا جردناها من العقل والشعور وهضمنا حقوقها المقررة لها وبخسناها قيمتها .

وقد جردنا جنبنا لحجاب النساء الى افساد صحتهن فألزمناهن القعود في المساكن وحرمانهن الهواء والشمس وسائر انواع الرياضة البدنية والعقلية

ليس فينا من لا يعرف ان من النساء من لا يفارقن بيوتهن لا ليلاً ولا نهاراً بل يلازمها ولا يرين لهن شريكاً في الوجود الاجارية أو خادمة أو زائرة تجيئها لحظات من الزمن وتتصرف عنها . ولا يرين

X ازواجهنَّ الأَعْدَاءَ عند النوم لانهم يقضون نهارهم في اشغالهم ويقضون الجزء

العظيم من ليلهم عند جيرانهم او في الاماكن العمومية

X ليس فينا من لا يعرف ان نساءً كثيرة فقدن صحتهنَّ في هذه

المعيشة المنحطة وفي هذا السجن المؤبد . وانهنَّ عشن عليلات الجسم

والروح ولم يذقن شيئاً من لذّة هذه الحياة الدنيا .

X لذلك كان اغلب نساءنا مصاباً بالتشم وفقر الدم ومتى ولدت المرأة

مرة تداعت بنيتها واذبل جسمها وظهرت عجوزاً وهي في ريعان شبابها :

كل ذلك منشأه خوف الرجال من الاخلال بالعفة !

على ان القول بأن الحجاب موجب العفة وعدمه مجلبة الفساد

X قول لا يمكن الاستدلال عليه لانه لم يقم احد الى الان باحصاء عام

يمكن ان نعرف به عدد وقائع الفحش بالضبط والدقة في البلاد التي

تعيش فيها النساء تحت الحجاب وفي البلاد الاخرى التي تتمتع فيها

بجريتهنَّ . ولو فرض وقوع مثل ذلك الاحصاء لما قام دليلاً على

الاثبات أو النفي في المسئلة لان ازدياد الفساد في البلاد ونقصه مما

يرتبط بامور كثيرة ليس الحجاب اهمها

ومن المعروف ان لطرق معيشة الأمة ومزاجها واقليمها وآدابها

وتربيتها دخلاً عظيماً في فساد اخلاقها وصلاحتها . ولهذا نرى الفساد

يختلف في بلاد اوروبا بين بلد وآخر اختلافاً ظاهراً ونرى ايضاً مثل

هذا الاختلاف بين البلاد التي لا تزال فيها عادة الحجاب باقية . بل

نرى اختلافاً كبيراً بين زمن وزمن في بلد واحد . والتجارب ترشد الى أمر يمكن أخذه دليلاً على ان الاطلاق أدنى بالنساء الى العفة من الحجاب . فمن المشاهد الذي لا جدال فيه ان نساء امريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعاً بالحرية وهن أكثرهن اختلاطاً بالرجال حتى ان البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة فتتعد البنات بجانب الصبي لتلقي العلوم . ومع هذا يقول المطلعون على احوال امريكا ان نساءها احفظ للاعراض وأقوم أخلاقاً من غيرهن وينسبون صلاحهن الى شدة الاختلاط بين الصنفين من الرجال والنساء في جميع أدوار الحياة . ومن المشاهد الذي لا نزاع فيه ايضاً ان نساء العرب ونساء القرى المصرية مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط في أوروبا تقريباً أقل ميلاً للفساد من ساكنات المدن اللاتي لم يمنعن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس في المفاسد وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التي تخالط الرجال تكون ابعد عن الافكار السيئة من المرأة المحجوبة . والسبب في ذلك ان الأولى تعودت رؤية الرجال وسماع كلامهم فاذا رأت رجلاً أياً كان لم يجرؤ منظره فيها شيئاً من الشهوة . بل لو عرض عليها شيء من هذا فانما يكون بعد مصاحبة طويلة وقضاء أوقات في خلوات كثيرة يحدث فيها ما قد يشعر كل واحد منهما بانجذاب الى الآخر : وهذا هو ما منعه الشريعة وبيننا امتناعه فيما سبق . اما الثانية فمجرد وقوع نظرها على

رجل يحدث في نفسها خاطر اختلاف الصنف من غير شعور ولا تعمد
 ولا نية سيئة . وانما هو أثر منظر الرجل الاجنبي لانه قد وَقَرَ في نفسها
 أن لا تراه ولا يراها فمجرد النظر اليه كاف في اثاره هذا الخاطر
 وقد شاهدت مراراً كما شاهد غيري هذا الأثر عينه في الرجال .
 فرأيت ان الرجل الذي لم يتعود الاختلاط بالنساء ان لم يغبه سلطان
 التهذيب القوي لا يملك نفسه اذا جلس بينهن . فلا تشبع عينه من النظر
 اليهن . ومن التأمل في محاسنهن وينسى في ذلك كل أدب ولياقة . وربما
 طلب الوسائل للامستهن بيده أو مماسنهن بكتفه ويندفع الى أقوال
 وأعمال تشمئذ منها نفوس الحاضرين كأنه يظن — بل هو يظن بالفعل —
 انه لا معنى لاجتماع الرجل مع المرأة في مكان واحد الا أن يتمتع كل منهما
 بشهوته مع الآخر . بخلاف الرجل الذي اعتاد على مخالطة النساء فانه لا يكاد
 يجد في نفسه أثر من رؤيتهن أكثر مما يجده عند رؤية الرجال ولا يشعر
 بأدنى اضطراب في حواسه ولا في مشاعره . فمن ألزم لوازم الحجاب
 انه يهيئ الذهن في الرجال وفي النساء معاً لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو
 سماع الصوت . وهذا يوضح لنا السبب فيما نشاهده كل يوم من ان
 المرأة اذا رأت رجلاً في الطريق أو دعتها الضرورة لمخاطبته تتصنع في
 حركاتها وصوتها ما تظن انه يروق في عين الرجل — والرجل كذلك .
 وقد شاهدت وشاهد كل انسان ما يخالف ذلك في بلاد أوروبا
 وفي الاستانة وفي القرى المصرية وبين الاعراب في البادية حيث يمر

الرجال والنساء بعضهم بجانب بعض وكتفا لكتف ولا يلتفت احدهم الى الآخر:

ولا ريب ان استلفات الذهن دائماً الى اختلاف الصنف من أشد العوامل في اثاره الشهوة

وبديهي ان المرأة التي تحافظ على شرفها وعفتها وتصون نفسها عما يوجب العار وهي مطلقة غير محجوبة لها من الفضل والأجر اضعاف ما يكون للمرأة المحجوبة . فان عفة هذه قهرية أما عفة الأخرى فهي اختيارية والفرق كبير بينهما . ولا أدري كيف نفتخر بعفة نساتنا ونحن نعتقد انهن مصونات بقوة الحراس واستحكام الاقفال وارتفاع الجدران ؟ أيقبل من مسجون دعواه انه رجل طاهر لانه لم يرتكب جريمة وهو في الحبس ؟ فاذا كانت نساؤنا محجوبات فكيف يمكنهن أن يتمتعن بفضيلة العفة ؟ وما معنى أن يقال انهن عفيفات ؟ ان العفة هي خلق للنفس تمتنع به من مقارفة الشهوة مع القدرة عليها . ولعل التكليف الالهي انما يتعلق بما يقع تحت الاختيار لا بما يستكره عليه من الاعمال . فالعفة التي تكلف بها النساء يجب ان تكون من كسبهن ومما يقع تحت اختيارهن لا أن يكن مستكرهات عليها إلا فلا ثواب لهن في مجرد الكف عن المنكر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من عشق فعف فكم فمات فهو شهيد " .

والحقيقة اننا نعمل عمل من يعتقد ان النساء عندنا لسن أهلاً

للعفة . أليس من الغريب ان لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبداً
 مهمما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن نتصور أن أمهاتنا
 وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ أليق أن لا تثق بهؤلاء
 العزيزات المحبوبات الطاهرات وان نسيء الظن بهن إلى هذا الحد ؟
 اني اسأل كل انسان خالي الغرض : هل هذه المعاملة يليق ان
 يعامل بها انسان له من خاصة الانسان ما لنا ؟ فهو مثلنا له روح
 ووجدان وقلب وعقل وحواس . وهل سوء الظن في المرأة الي هذا
 الحد يتفق مع اعتبارنا لأنفسنا واعتبار المرأة لنفسها ؟

والعاقل يرى ان الاحتياط الذي يتخذه الرجال لصيانة النساء
 عندنا مهما بلغ من الدقة لا يفيد شيئاً ان لم يصل الرجل الى امتلاك
 قلب امرأته . فان ملكه ملك كل شيء منها وان لم يملكه لم يملك منها
 شيئاً . ذلك لانه ليس في استطاعة رجل ان يراقب حركات امرأته
 وسيرها في كل دقيقة تمر من الليل والنهار .

متى خرج احدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من
 الأسباب فعلى م يتكل ان لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟
 ثم ماذا يفيد الرجل ان يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟
 أيستطيع أن يمنعها أن تتصرف فيه وتبذله لأي شخص تريد ؟ فاذا
 رأت امرأة من الشباك رجلاً فأعجبها ومالت اليه بقلبها وودت أن
 تواصله لحظة أفلا يعد هذا في الحقيقة من الزنا ؟ ألم يتمزق حجاب

العفة في هذه اللحظة ؟ وهل بعد المسافة بينها وبين الرجل وعدم تمكنها من مواصلته يسمى عفة ؟ نعم ان الشرائع لا تعاقب ولا تقيم الحد على زنا العين والقلب لان العقوبات والحدود لا سلطان لها على الخواطر والقلوب . ولكن في نظر أهل الأدب والتقوى لا عبرة للبعد بين الاجساد اذا تواصلت الارواح واجتمعت القلوب .

ومع ذلك ما الذي فعل الحجاب ؟ ألم نسمع بما يجري في داخل البيوت مما ينافي العفة ويخل بالشرف ؟ هل منع البرقع وقصر النساء وراء الحجاب والاقفال سريان الفساد الى ما وراء تلك الحجب ؟ كلا . ربما يقول قائل ان ما نسمعه اليوم عن كثير من النساء اكثر مما كنا نسمعه سابقاً وان الاشاعات عن الفساد اشد انتشاراً . بل ربما كان الفساد في الواقع اوسع دائرة مما كان عليه قبل ثلاثين سنة مثلاً ولا منشأ لذلك الا رقة الحجاب . فالحالة القديمة على ما فيها كانت أصون للاعراض وأحفظ لشرف المرأة من تلك الحالة التي طرأت على النساء - فنجيب عن ذلك باننا لا ننكر ان بعض الطباع الفاسدة من الرجال والنساء معاً وجدت سيلاً من تخفيف الحجاب الى تعارف بعضها ببعض واثبات ما تميل اليه من المنكر . بل نزيد عليه انه لو استمر تخفيف الحجاب يتقدم بالسرعة التي سار بها الى الآن - والنفوس على ما هي عليه - لعمت البلوى وازداد الفساد انتشاراً .

غير ان السبب في ذلك ليس هو تخفيف الحجاب . بل هو راجع

الى أمور كثيرة يجمعها الجهل وسوء التربية .

باب ٤ فسوء التربية هو علة الخفة والطيش . وهو الذي يسهل على امرأة ذات مكانة في بيتها وقومها ان تطيل نظرها الى شاب يمر في طريقها . وسوء التربية هو الذي يخفف عندها تبعة تحريك يدها لاجابة ذلك الشاب فيما يشير به اليها . وسوء التربية هو الذي يدفع بها الى الاتفاق معه على التلاقي بل والتواصل قبل أن يدور كلام بينه وبينها . وانما أركان عقد ذلك الاتفاق هي نظرات واشارات لا تفصح عن خلق من الاخلاق ولا عن ملكة من الملكات ولا عن درجة من العرفان ولا تدل على حالة نفسية ولا عقلية ولا جسمية يمكن الارتباط بها بين شخصين

سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ويفتح على المرأة من الفساد كل باب . وهو الذي يخشى معه أن تسرى العدوى من امرأة الى امرأة ومن طبقة الى طبقة . فقد نرى ان المحجبات مهما بالغن في التحجب لا يستنكفن أن يختلطن بنساءً أخط منهن في الدرجة وأبعد عن التصون والعفة . فسيده المنزل لا تري بأساً في مخالطة زوجة خادمها بل قد تأنس بالحديث معها وسماع ما تنقله اليها من غير مبالاة بما يلائم الحشمة وما لا يلائمها . ولا تأنف التفتح في القول مع الدلالات وباءعات الاقمشة . بل قد يطوحها الجهل الى الاختلاط بنسوة لا تعرف شيئاً من حالهن ولا من أي مكان أتين ولا بأي خلق

من الاخلاق تخلقن . وأشنع من هذا كله وأشد منه فعلا في افساد الاخلاق ان نساء من المومسات اللاتي يحملن تذكرة رسمية يدعون في الافراح ويرقصن تحت أعين الامهات والبنات والكبار والصغار ! هذا ما يأتي من سوء التربية وهو من أشد العوامل في تمزيق ستار الأدب وليست رقة الحجاب بشيء في جانب هذا كله .

طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أم كثيرة من الغريبيين ووجدت علائق بيننا وبينهم علمتنا أنهم أرق منا وأشد قوة . ومال ذلك بالجمهور الاغلب منا الى تقليدهم في ظواهر عوائدهم خصوصاً ان كان ذلك ارضاءً لشهوة أو اطلاقاً من قيد . فكان من ذلك ان كثيراً من أعليننا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء وتسامحنهن في الخروج الى المنتزهات وحضور التياترات ونحو ذلك وقلدهن في ذلك كثير من يليهن وعرض من هذه الحالة بعض فساد في الاخلاق .

تلك حالة طرأت للاسباب التي تقدمت وتبعها من العواقب ما بيناه . ولكن ليس من مصلحتنا بل ولا من المستطاع لنا نحو هذه الحالة والرجوع الى تغليظ الحجاب . بل صار من مميزات شؤوننا ان نحافظ عليها ونتقى تلك المضار التي نشأت عنها . وذلك هو ما نستطيعه ايضاً . اما انه ليس من مصلحتنا ان نمحو هذه الحالة فلما قدمناه في مضار الحجاب على الوجه المعروف . واما اننا لا نستطيع ذلك فلان اسباب

هذه الحالة مما فصلناه سابقاً لا تزال موجودة وهي تزداد بمرور الزمان رغماً
 عنا . ولاننا قد وجدنا من أنفسنا ميلاً الى حسن المعاملة في معاشره
 النساء وزين في أنفس الكثير منا حب المجاملة في مرضاتهن ونشأت
 لهن في قلوب الرجال منزلة من الاعتبار لم تكن لهن من قبل . وأحس
 النساء بذلك من رجالهن فعددن ما وصلن اليه من الحرية والاطلاق
 حقاً من الحقوق وضرورياً من ضروريات المعيشة : فلا يسهل على الرجل
 ان يقضي على امرأته اليوم بما كان يقضي به من قبل اربعين سنة .
 والذي يجب علينا هو معالجة المضار التي يظن انها تنشأ عن
 تخفيف الحجاب . ولا توجد طريقة انجح في ذلك العلاج الا التربية
 التي تكون هي الحجاب المنيع والحصن الحصين بين المرأة وبين كل
 فساد يتوهم في أية درجة وصلت اليها من الحرية والاطلاق .
 سيقول معترض ان التربية والتعليم يصلحان اخلاق المرأة واما
 الاطلاق فربما زاد في فسادها . فنجيب ان الاطلاق الذي نطالب به
 هو محدود بحظر الخلوة مع اجنبي . وفي هذا الحظر ما يكفي لانتقاء
 المفاسد التي لا تتولد الا من الخلوة . اما الاطلاق في نفسه فلا يمكن
 ان يكون ضاراً ابداً متى كان مصحوباً بتربية صحيحة . لان التربية
 الصحيحة تكون افراداً اقوياء بانفسهم يعتمدون على انفسهم ويسيرون
 بانفسهم . فمن كملت تربيته استقل بنفسه واستغنى عن غيره . ومن
 نقصت تربيته احتاج الى الغير في كل أموره . فالاستقلال في النساء

كلاستقلال في الرجال يرفع النفس من الدنيا وبعدها عن
 الحسائس: لذلك يجب ان يكون هو الغاية التي نطلبها من تربية النساء
 حسن التربية واستقلال الارادة هما العاملان في تقدم الرجال
 في كل زمان ومكان . وهما مطمح آمال كل أمة تسعى الى سعادتها .
 وهما من أشرف الوسائل لا بلاغها من الكمال ما أعدت له . فكيف
 يمكن لعاقل ان يدعى ان لمذين العاملين اثراً آخر شيئاً في أنفس
 النساء ؟ ومن زعم ان التربية واستقلال الارادة مما يساعد على فساد
 الاخلاق في المرأة فقد قصر نظره على بعض الاعتبارات التي لا يخلو
 عنها أمر من الامور النافعة في العالم فان لكل نافع ضرراً اذا
 أُسيء استعماله

هذا تعليم الرجال لا يخلو من العيوب انكثيرة وكثير منهم
 يستعمل علمه واختياره فيما يضر بنفسه أو بغيره . فهل ذلك يحمل
 احداً من الناس على أن يقول ان من الصواب أن لا يعلم الرجال شيئاً
 خوف استعمال ما يتعلمون فيما يسوؤهم أو يسوء غيرهم . وان من الواجب
 أن يتركوا في الجهل تحت حجاب الغفلة ؟ لا أظن ان عاقلاً يخطر هذا
 الخاطر بياله . فاذا كان اجماعنا قد انعقد على أن لا خير للرجال في
 الجهل والاستبعاد . وان لا سبيل لهم الى بلوغ درجات الفضل الا
 بالعلم وحرية الفكر والعمل . فما لنا نختلف في هذه القضية نفسها اذا
 عرض ذكر المرأة ؟ وأي فرق بين الصنفين في الفطرة والحلقة ؟

والحق انا غالينا في اعتبار صفة العفة في النساء وفي الحرص عليها وفي ابتداع الوسائل لحفظ ما ظهر منها وتفخيم صورتها حتى جعلنا كل شيء فداءها وطلبنا ان يتضاءل ويضمحل كل خلق وكل ملكة دونها . نعم العفة أجمل شيء في المرأة وأبهى حاية تثلي بها . ولكن العفة لا تغني شيئاً عن بقية الصفات والملكات التي يجب أن تثلي نفس المرأة بها من كمال العقل وحسن التدبير والخبرة بتربية الأولاد وحفظ نظام المعيشة في البيت والقيام على كل ما يعهد اليها من الشؤون الخاصة بها . بل نقول ان لهذه الصفات دخلاً كبيراً في كمال العفة وفقدان المرأة خصلة من هذه الخصال لا ينقص في ضرره وفي الخط من شأنها عن فقدان العفة نفسها .

اتفقت الشرائع الالهية والقوانين الوضعية على ان عقد الزواج وحده هو الذي يحلل الاجتماع بين الرجل والمرأة وان اجتماعهما بدون ذلك العقد المقدس ممنوع وممقوت . ذلك أمر اقنضاه نظام العشيرة وكمال النفس الانسانية فالعمل على ما يخالفه قبيح مذموم بلا ريب . غير أن تلك الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد حظرت أعمالاً أخرى وأنزلتها من الشناعة منزلة لا تحط عن منزلة الخنا . ووضعت عليها عقوبات أشد من العقوبة عليه لانها اعتبرت ان لتلك الاعمال من الضرر بالنظام ما هو أشد من ضرر الزنا . ولنضرب مثلاً بجريمة القتل فانها أعظم من جريمة الزنا في نظر الدين والقانون . فلم لم تتخذ

للوفاية منها من الوسائل الضارة ما اتخذناه للوقاية من الزنا ؟

انا معرضون في كل ساعة تمر من حياتنا الى مصائب لا تحصى وهذا لم يمنعنا من ان نتحرك ونسعى ونقتحم الاخطار في الاسفار لنحصل من رزق الله ما نحتاج اليه . انا نشعر بأنواع الجرائم ترتكب من حولنا فالقتل والنهب والنصب والتزوير والقذف وغيرها من الجرائم تزعم الساكن وتقلق المطمئن ومع ذلك فانا نحتمل مصائبها ونسلم لحكم القدر فيها ونجتهد في تطهير المجتمع منها بالوسائل المشروعة من التربية أو ايقاع العقوبة على مرتكب الجريمة . فلم لا يكون ارتكاب الفحش من المرأة جريمة من هذه الجرائم التي لا يخلو منها مجتمع انساني ؟ ولم نتخيل انها أشنع وأفظع من سواها حتى اتخذنا لمنعها ما لم نتخذ لمنع غيرها ؟ وعلى أي حال فليس من الجائز أن نأتي ما فيه ضرر محقق لنتقي به ضرراً وهمياً . فوقوع الفحش من المرأة أمر محتمل الوقوع قد يكون وربما لا يكون . أما حجابها ومنعها من التمتع بقواها الغريزية فهو ضرر محقق لا حق بها حتماً . ويا ليتنا اقتصر عليها ولكنه يتعداها الى كل ما يقع تحت رعايتها .

يتوهم أحدنا ان امرأته ربما تميل الى غيره ان رفع الحجاب عنها فلذلك يزوج بها وراء الابواب ويغلق عليها الاقفال ويظن بذلك انه قد استراح من الوسوس وهو لا يدري ما ربما يأتيه من . . . حيث لا يدري فلم يفده حرصه شيئاً في الحقيقة . ومع هذا فهو بعمله قد قتل

نفساً حيةً وأفسد نفوساً كثيرة ممن نتولاهم زوجته في بيته في سبيل
ما يظنه راحة لنفسه .

توهم كثير ممن سبقنا مثل ما توهمنا وحجبوا نساءهم كما نحجب
نساءنا بل فاقونا في التفنن واتخاذ الطرق لاطمئنان أنفسهم من ناحية
زوجاتهم . واننى أذكر الآن أغرب طريقة كانت مستعملة عند
أعيان أوروبا في القرون الوسطى وهي ما كان يسمى عندهم بنطاق العفة .
وهو نطاق من حديد يتصل به حفاظاً ولذلك النطاق قفل يكون
مفتاحه في جيب الرجل دائماً . ولكن هذا لم يمنع النساء من أن يمنحن
عشاقهن مفاتيحاً مصطنعاً ! ثم ما لبث هؤلاء الامم أن أدركوا خطأهم
وعرفوا أن ضرر تلك الأوهام أكثر من نفعها . ولما أخذت المعارف
تنتشر بينهم شرعوا في قياس أعمالهم المعاشية بمقياس العقل السليم والعلم
الصحيح الخالص من شائبة الوهم . وادركوا أن سعادتهم لا تتم بما
ينالون من ثمار ذلك الا اذا شاركهم نساؤهم في مساعيهم وعاونهم في
لم شعثهم وتكميل نقصهم فأعدوهن بالترية والعلم الى ما أملوا منهن .
فافتككن من أسرهن وتمتعن بمجرياتهن وسرن مع رجالهن يعاونهم في
الحياة ويمددهن بالرأي في كل أمر . ولست مبالغاً ان قلت ان
ما اقامه التمدن الحديث من البناء الشاخص وما وضعه من الاصول الثابتة
انما شيد على حجر أساسي واحد هو المرأة

لم يكن ما استفاده الغربيون من تربية نساءهم والتساهل لهن في

مخالطتهم قاصراً على المزايا التي أشرنا إليها بل كان لهم مع ذلك فوائد
جمة في تدير المعيشة وتيسر طرق الاقتصاد
تدخل بيت الغربي من أهل الطبقة الوسطى فتجده أتم نظاماً
وأكل ترتيباً واجمل اثاثاً من بيت الشرقي من أهل طبقته . ومع ذلك
تجد نفقة الغربي اقل من نفقة الشرقي بكثير

أنظر الى الواحد منا تجد مسكنه لا بد ان يكون الى قسمين قسم
للرجال وآخر للنساء . فان اراد ان يبني بيتاً فعليه ان يبني ما يكفي
لبناء بيتين في الحقيقة واذا استأجر بيتاً فهو انما يستأجر في الواقع بيتين
ويتبع ذلك ما يلزم لكل منهما من الاثاث والفرش . ولا بد له من
فريقين من الخدم فريق يخدم الرجال في القسم المختص به والاخر
يختص بخدمة النساء داخل البيت . ثم لا بد له من عربة للنساء وعربة
للرجال لانه ليس من الجائز في عرفنا ان يركب الرجل مع زوجته او
مع والدته في عربة واحدة . وهو مضطر لان يزيد في النفقة للطعام
وما يتبعه لانه اذا أتى ضيف واحد رجلاً كان او امرأة وجب تحضير
مائدتين بدل واحدة كانت تكفي . وهكذا ترى نفقات ضائعة وثمرات
كسب مستهلكة ولا سبب لها الا تشديد الحجاب على النساء

هل يظن المصريون ان رجال اوروپا مع انهم بلغوا من كمال العقل
والشعور مبلغاً مكنهم من اكتشاف قوة البخار والكهرباء واستخدامها على
ما نشاهده باعيننا . وان تلك النفوس التي تخاطر في كل يوم بحياتها في
تحرير المرأة

طلب العلم والمعالي وتفضل الشرف على لذة الحياة . هل يظنون ان تلك العقول وتلك النفوس التي نعجب بأثارها يمكن ان يغيب عنهما معرفة الوسائل لصيانة المرأة وحفظ عفتها ؟ هل يظنون ان أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم لوراوا خيراً فيه ؟ - كلا . وانما الافراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقول السذج وتركن اليها نفوسهم ولكنها يجها كل عقل مهذب وكل شعور رقيق .

متى تهذب العقل ورق الشعور ادرك الرجل ان المرأة انسان من نوعه لما ماله وعليها ما عليه . وأن لا حق لاحد على الآخر بعد توفية ما فرضته الشريعة على كل منهما لصاحبه الا ما يعطيه كل من نفسه بمحض ارادته وحسن اختياره .

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل عرف ان حجاب المرأة اعدام لشخصها فلا تسمح له ذمته بعد ذلك ان يرتكب هذه الجريمة توسلا الى ما يظنه راحة بال واطمئنان قلب .

متى تهذب العقل ورق الشعور في الزوج وجد من نفسه ان لا سبيل الى اطمئنان قلبه في عشرة امرأة جاهلة معهما كان الحائل بينها وبين الرجال

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل ادرك ان الذشي تشتاف اليه نفسه هو حب يصل بينه وبين انسان مثله بحسن اختيار وسلامة ذوق لا بمجرد نزعات الهوى ونزوات الشهوة . فيسعى جهده في ما يقويه ويشد

عراه وببذل ما في وسعه للحفاظة عليه .

متى تهذب العقل ورق الشعور في الرجل والمرأة لا تقنع نفوسها
بالاختلاط الجسداني وحده بل يصير اعظم ههما طلب الائتلاف العقلي
والوحدة الروحية .

ان طبيعة العصر الذي نحن فيه منافرة للاستبداد معادية للاستعباد
ميالة الى سوق القوى الانسانية في طريق واحد وغاية واحدة . فهذا
الطائف الرحماني الذي طاف على نفوس البشر فنبه منها ما كان غافلاً
لا بد ان ينال منه النساء نصيبهن . فمن الواجب علينا ان نمد اليهن
يد المساعدة ونعمل بقول النبي صلى الله عليه وسلم : "انقوا الله في الضعيفين
المرأة واليتيم" . ولا شيء ادخل في باب التقوى من تهذيب العقل
وتكميل النفس واعدادها بالتعليم والتربية الى مدافعة الرذائل ومقاومة
الشهوات ولا من حسن المعاملة واللطف في المعاشرة . فعلينا ان نجعل
الصلة بيننا وبينهن صلة محبة ورحمة لا صلة اكرام وقسوة . هذا
ما تفرضه علينا الانسانية وتطالبنا به الشريعة وهو مع ذلك فريضة وطنية
يجب علينا ادائها حتى تكون جميع اعضاء المجتمع عندنا حية عاملة
قائمة بوظائفها

وقبل ان اختم الكلام في هذا الباب اري من الواجب علي ان
انبه القارىء الى اني لا اقصد رفع الحجاب الآن دفعة واحدة والنساء
على ما هن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفسد جمة

لا يتأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي . وانما الذي اميل اليه هو اعداد نفوس البنات في زمن الصبا الى هذا التغيير :

فيعودن بالتدريج على الاستقلال و يودع فيهن الاعنقاد بان العفة ملكة في النفس لا ثوب يخفي دونه الجسم . ثم يعودن على معاملة الرجال من اقارب واجانب مع المحافظة على الحدود الشرعية واصول الادب تحت ملاحظة اوليائهن . عند ذلك يسهل عليهن الاستمرار في معاملة الرجال بدون ادنى خطر يترتب على ذلك اللهم الا في احوال مستثناة لا تخلو منها محجة ولا بادية

المرأة والامة

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على أن يستعرف
أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم
في دور مهم بل في أهم دور من تاريخها
اني لا اجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه
الشعور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام في أنحاء البلاد وتهيأت
الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة
اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هي في
هذا الزمان . فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى
فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر
الا وطفه بقدمه . وكما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه من
زراعة وصناعة وتجارة . ولم يدع وسيلة من الوسائل الا استعملها فيما
يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين .

فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها وبأي طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكليزي على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والاماني زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوي على كنوز لا يعرف اهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا امة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا اهلها واهلكوهم أو أجلوهم عن ارضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقيا حيث لا يرى اثر لاهالي البقاع التي احتلها الاوروبي لانهم خرجوا منها طوعاً او كرهاً . وان صادفوا امة كامتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماضٍ ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشي من النظمات الابتدائية خالطوا اهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على اهم اسباب الثروة لانهم اكثر مالاً وعقلاً وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم في الحياة : فطرة الله التي فطر عليها جميع الانواع واودعها لما لتعدها الى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها

عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم .
وما قوي عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا
القتال الدائم مبرهنًا بظفره على انه افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش وبقى
ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا
مندوحة عنها . وهي ان تستعد الامة لهذا القتال وتأخذ له اهبتها وتستجمع
من القوة ما يساوي القوة التي تهاجمها من اي نوع كانت : خصوصاً تلك
القوة المعنوية وهي قوة العقل والعلم التي هي اساس كل قوة سواها
فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت في التريبة مسالكهم .
واخذت في الاعمال ما خذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكنها
أن تعيش بجانبهم . بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم .
لان البلاد بلادها واراضها أبربها منها بالغريب عنها وابناءها اقدر على
المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من انفسهم بتلك
الحال الشريفة لا يفلحون !

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة امامنا ولا
يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من انفسنا
فان كان المصريين هم وصدق عزيمة في طلب سعادتهم والمحافظة
على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم ان يسلكوا
تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من انفسهم كل

خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على انفسهم في اصلاح انفسهم .
ولا يضيعوا اوقاتهم في امانى باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم
فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلاً . اما هم فانهم
يستطيعون ان يأتوا في اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم
ان يقولوا كل يوم ان الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من
ان نفعل ما يجب علينا لانفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا اظن ان مصر رأت ما يماثلها
في اي زمن من ازمانها . وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة اشد
الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح في عمل من الاعمال العظيمة التي
يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان ننتهز فرصة ما وصلنا اليه ونحرث
ارضنا ونسقي غراسها وننتظر ما يأتي به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها .
وكما أن الزارع يجب عليه قبل ان يلقي البذور في الارض ان يهتم بمعرفة
طبيعتها وما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئتها حتى لا يضيع ماله
وتعبه كذلك يجب علينا ان نبحث في اسباب تاخرنا . فاذا عرفناها
عمدنا الى ازالتها وصنا انفسنا من التخبط على غير هدى وارحنا انفسنا من
التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه ثبتت هنا امرًا لاحظه كل
من له الملم باحوال الشرق : وهو ان تاخر المسلمين عام فيه اين كانوا .
فالسبب يجب ان يكون عامًا ايضاً .

اما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في انحطاط المسلمين . اذ لو كان له اثر لوجد اختلاف بين التركي والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث العمران والمدنية ولكننا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور في بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد . ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والاقاليم . فالتركي مثلاً نظيف صادق شجاع والمصري على ضد ذلك الا انك تراهما رغماً عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط . اذ لا بد ان يكون بينهما امر جامع وعلّة مشتركة هي السبب الذي اوقعهما معاً في حالة واحدة .

ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاوروبابوين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم في البلد الواحد . ولم يقصد احد منهم خصوصاً افاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامي الحقيقي بانه السبب في انحطاط المسلمين . فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلاً عن ابنائه المنستين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر فيها برهنت على انه وسيلة من افضل الوسائل وعامل من اقوى العوامل التي تسوق الانسان في طرق الترقى والنقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون

تحرير المرأة
(١٣)

ان ما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عاماتهم بل واغلب علمائهم
بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب
موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيقي الطاهر وانما هي بدع ومحدثات
الصقت به : فهذا الخليط الذي سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو
المانع من الترتي .

وليس في امكان احد أن ينكر ان الدين الاسلامي قد تحول
اليوم عن اصوله الأولى وان العلماء والفقهاء — الا قليلاً ممن انار الله
قلوبهم — قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخريه وهزوا
وحقت عليهم كلمة الكتاب : " واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم
الحياة الدنيا " .

ولكني اعتقد ان هذا الانحطاط الذي طرأ على الدين ليس سبباً
لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لأمر : هو الجهل الفاشي في
المسلمين عامة رجالاً ونساءً .

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم يخدمون
الدين ويشغلون بالدنيا في آن واحد . وصرحت السنة كما اجمعت
عليه الائمة بان لا قوام للدين الا بسطة تحفظه . فلم يمض الا قرن
واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على اهم اقسام
العالم . ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على
الأخذ بهذا الدين . وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً

لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة : وهو المقصد الذي يعمل له الاوروبون في بلاد الشرق الآن .

ثم لم يميز على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء الكون بنور العلوم التي نشرها المسلمون في كل ارض احتلوها وبلد اقاموا به . فلم يتركوا فرعاً من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه والفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة الأمية التي ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدينة ابداً — اندفعت بقوة ذلك التيار وعاملت تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتناولته مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام . وآخر بالعلوم الطبيعية . وثالث بالفلك والحساب . ورابع بالتاريخ والجغرافيا . وخامس بالفلسفة والاخلاق . ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلات سفنهم بالبضائع تجري في البحار حول الارض . واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى ان رزى المسلمون بوقائع التاتار في الشرق وانقراض الخلافة منه . وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى اوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى ومن ذلك الحين انطلقاً مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة العربية وانصرفوا عن كل شيء سواها .

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكت ظلماته في اذهانهم لم يعد في استطاعتهم ان يفهموا حقيقة الدين وشعروا ان ضعفهم لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستوا واحد . ثم اخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق : والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه .

انظر الى الجاهل تجده دائماً يختار من فكرين اقلهما صواباً ومن طريقين اصعبهما ومن عمليين اضرهما . ذلك لان الحق سواء كان فضيلة او مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الا بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الامور وعواقبها . ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول . وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبلية .

ومن رأي علمائنا اليوم ان الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعينهم . وصار منتهى علمهم ان يعرفوا في اعراب البسمة ما يزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل . وان سألتهم عن شيء من الاشياء المتداولة في ايديهم كيف صنع او عن حال الامة التي هم منها او امة اخرى تجاوزهم او الامة التي احتلت بلادهم اين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف . بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من اعضائه او مكانه من بدنه - هزوا اكتافهم ازدراءً بالسائل والمسئلة واحتقاراً لهما . وان تكلمت معهم في نظام

حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتها السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً . وسواء عاشوا في العز او في الذل فهم على كل حال عائشون وبما يخطون اليه راضون . ويرون أن ليس للانسان ان يعمل لمصلحة نفسه وان يختار لها امراً . ويزعمون انهم وكلوا جميع امورهم الى ما يجرى به القضاء . مع انك تراهم اشد الناس احتيالا في طلب الرزق من غير وجهه واحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم . فهم في الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلاً للعامة واقناعاً للسذج بانهم في تقصيرهم في أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء .

ظن هؤلاء المساكين انهم متى عرفوا كيف تسنقيم العبارات وكيف تعذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما في الدين والدنيا: والبعد بينهم وبين الدين الحقيقي عظيم .

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في بيان ما جاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه ما يناسب المقام هنا لانه احسن ما كتب في هذا الزمان لتنبية افكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . « وان ليس للانسان الا ما سعى » وياح لكل احد

” ان يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة . ولم يحظر
 ” عليه الا ما كان ضاراً لنفسه او بمن يدخل في ولايته او ما تعدى ضرره
 ” الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر
 ” كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق المهتم
 ” في السعي حتى لم يعد لها عقبه تعثربها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به .
 ” انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يرد لها عنه القدر فبددت
 ” فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت اصوله الراسخة في المدارك ونسفت
 ” ما كان له من دعائم وازكان في عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة
 ” ازعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه
 ” شعاع من نور الحق خلصت اليه هينة من سدنة هياكل الوهم ” ثم فان
 ” الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحة كليلة والازواد قليلة
 ” علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان الانسان لم
 ” يخلق ليقاد بالزام ولكنه فطر على ان يهتدي بالعلم والاعلام اعلام
 ” الكون ودلائل الحوادث . وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق
 ” البحث هادون .

” صرّح في وصف اهل الحق بانهم ” الذين يستمعون القول
 ” فيتبعون احسنه “ . فوصفهم بالتميز بين ما يقال من غير فرق بين
 ” القائلين لياً خذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه .
 ” ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو كانوا فيه يامرون وينهون

” ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم
 ” حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .
 ” صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء
 ” وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين باقوال السابقين ونبه على أن
 ” السبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمى لعقول على
 ” عقول ولا لأذهان على اذهان . وانما السابق واللاحق في التمييز والقطرة
 ” سيان . بل لللاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها
 ” والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
 ” اسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها اهل الجيل
 ” الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وظغيان الشر الذي وصل
 ” اليهم بما اقترفه سلفهم ” قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة
 ” المكذبين ” . وان ابواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي
 ” وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب .

” عاب ارباب الاديان في اقتفاءهم أثر آباءهم ووقوفهم عند
 ” ما اختطته لهم سير اسلافهم وقولهم : ” بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا “ .
 ” انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون “ (١)

ومما يستحق ان نفرح له هو أن نفرأ من علماء عصرنا في مصروفي
 غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون ما نرى ويقولون ما نقول

ويعترفون بان العلوم التي نقرأ الآن في الازهر وفي غيره لا تفيد ان لم
تؤسس على الحقائق العلمية التي تهىء العقول لقبولها والانتفاع بها .
وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقهاء لا يمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها
الامام بالمعارف العامة والمبادئ العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم
كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم شريعة كل نفس في ارتباطها
بخالقها وفي معاملتها مع بقية البشر . وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس
وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها
مما تسمو به الافكار ويرتقى به العقل ؟ أليس العلم في الحقيقة واحداً
يشبه شجرة ذات فروع وافنان تتصل كلها باصل واحد وتغذى من
جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقة كل شيء
في الوجود ؟

وما علينا الا ان نصغي لمقال هؤلاء العلماء الافاضل الذين هم ادرى
منا بحاجات الدين ولا يخفى عليهم شيء من حاجات الدنيا . وان نعصدهم
في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذل
العقبات ويتغلب على المصاعب التي اقامها اهلها في طريقه .

ولا حاجة بنا الى التطويل في شرح امر صار معلوماً عند الكل
وهو انحطاط الدين اليوم في جميع مظاهره حتى في العبادات . وانما
اردنا ان نبين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول . وأن العلة
الأولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقى هي

٧٧
٩*



اهمال التربية في الرجال وفي النساء معاً.

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل امر على حاله : والدين ايضاً . وان زال ذلك السبب صلح حال الامة في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية و صلح معها الدين ايضاً . اما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهذا مما صار معروفاً عند كل احد ومسلماً عند الجميع . واما وجوب تربية المرأة ايضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . اما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها . فيجب ان تربي كما يجب ان يربي الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة . لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم . فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر في تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره .

ويرى القراء في الكتاب الذي ترجمه صدقي احمد فتحى بك زغلول من اللغة الفرنسية الى العربية (١) كيف ان نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الامم

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين

بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل .
والحرية والاستقلال في الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم
ذكوراً وأنثاء . ولهذا ابتداء الفرنسيون وغيرهم في تقليدهم لانهم
ادركوا ان تربية العقل التي اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية
الجسم . وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا
تذكر القارىء ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه خصوصاً من
امه الحالة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة حملها يعلم مقدار ما
تستفيده المرأة والرجل والهئية الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة .
واما تربيتها العقلية فلائها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما
هي حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ويحفظ بها النوع الانساني . لكنها
في ذلك انما تؤدي وظيفة كل اثنى من سائر انواع الحيوانات . وهي
لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

وفي الحق اننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم
نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه اننا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل
آخروان الرجال غير محتاجين للنساء في القيام بشؤون الحياة الخاصة
والعمامة وغاب عنا أن الرجل انما يكون في كبره كما هيأته والدته
في صغره .

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذي اريد
ان يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب .

اني اكرر ما قلته من انه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم امهات قادرات على ان يهيئهم للنجاح . فلك هي الوظيفة السامية التي عهد التمدن بها الى المرأة في عصرنا هذا وهي تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً .
 وبديهي ان العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادي تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . اما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلي امتاز به النوع الانساني وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار عظيم ومعارف مختلفة .

والامر الذي يلزم ان تلتفت اليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامة لان العائلة هي اساس الامة . ولما كانت المرأة هي اساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية اول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها المرأة ميزان العائلة . فان كانت منخطة احتقرها زوجها واهلها واولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظاماً ولا ترتيباً في معيشتهم ففسد آدابهم وعوائدهم . اما ان كانت المرأة على جانب من العقل والأدب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا انفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضامنين اقوياء باتحادهم . وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في

عائلته . ومن المحال ان يكون للانسان من الصفات والاخلاق في امته ما ليس له نموذج في منزله . وان يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعامل بها افراد عائلته . فان كانت حسن الاخلاق في عائلته كان كذلك في أمته وان كان سيء الاخلاق في عائلته ساءت اخلاقه في امته ايضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة في تقدم الامم وتأخرها . وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة ايضاً من اهمها انحطاط المرأة .

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو اهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الابطاء في اعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنظنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التي يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواء وان اهملناه افسد علينا كل اصلاح سواء

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء اوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التي وقفها اولئك الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية

محل الاستبداد رأى العالم ان في المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى
وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال . وان انحطاطها
كان عارضاً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها
واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل
صعدت من العقل الى درجة وذهبت في رقة الشعور الى غاية لم تكن
تخطر في خيال احد من اهل تلك العصور الخالية . وهي الى الان كلما
تمتعت بجزيتها زاد ارتقاؤها .

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك في
انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع
من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا
والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفاً لكتف . ولا يوجد عمل خيري الا
وهي في اول العاملين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا والمرأة نصيب
فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تمل الحقوق السياسية
فاذا منحتها كما هو المنتظر في بلاد اوروبا تمت المساواة بينهما . على
انها قد نالت منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب في
امريكا وفي انكلترا في المجالس البلدية وفي فرانس في المحاكم التجارية وفي
بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس الشورية . ولا
تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوروبا وامريكا من جمعية للنساء همها أن
تطالب بحقوق المرأة والسعي في سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر نترك

الاعمال
المرأة

في تاريخ اعمالهن اثراً شريفاً وتنتهي بفوز جديد .

ولا يشك احد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لا بد ان تصل في زمن قريب الى مستو تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال في جميع الحقوق . ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله . وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال في ميدان التقدم والترقي .

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء في التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدها لا يظهر اثرها للناظر في احوال الامة ولكن لجمعها مجموع واحد يظهر اثره في احوالها تمام الظهور . وهي رأس مال عظيم نحن مقصرون في العناية والانتفاع به .

وعندي أن من اعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من اعمال النساء الخيرية . لان الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب . ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحملة اعظم الرجال جلدًا . ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب . غير ان المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشدًا يهديها الى سبل الخير فتصرف ما اودعه قلبها من كنوز الرحمة في اصغر الامور واحقرها .

هذا هو عمل المرأة في الامم المتمدنة وقد وجد في مبدأ الاسلام

عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر في مصالح المسلمين العامة . فجميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية على اختلاف مواضعها قد رويت عن عائشة وام سلمة وغيرها من امهات المؤمنين ونساء الصحابة . وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر . وان عائشة تداخلت في مسألة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد الخلفاء . واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القتها عند دخولها البصرة :

« ان الغوغاء من اهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثوا فيه الاحداث واووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل امام المسلمين » (عثمان) بلا ترة ولا عذر . فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام واحلوا البلد الحرام والشهر الحرام . ومزقوا الاعراض والجلود » واقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين » ولا متقين لا يقدرّون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين اعلمهم » ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في اصلاح هذا . وقرأت : « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة » او معروف او اصلاح بين الناس « . ننهض في الاصلاح ممن امر الله عز وجل وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر

” والاثني . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه . ومنكر
” ننهاكم عنه ونحتمكم على تغييره “ (١)

ويروى عن ام عطية انها قالت : ” وغزوت مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم في رحالهم واصنع لهم الطعام
واداوي الجرحى واقوم على المرضى “

والذي يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غربية من
الممرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية .

والناظر في الاحوال التي فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة
مثل الخلافة والامامة والشهادة في بعض الاحوال لا يجد واحدة منها
تعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع في هذه
المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصص
الوظائف العمومية في الرجال . وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه
الى الان التمدن في اوروبا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة
والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض
الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى
المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها اهليتها لان تكون وصية على
رجل — يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان المرأة
بالفعل من استعمال هذه الحقوق .

والقارئ الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغاية
 الاجاز لا بد ان يكون قد لاحظ انها كلها تلتخص في عبارة واحدة
 هي: انه لا بد لحسن حال الامة من ان تحسن حال المرأة . فاذا ارسل
 الناظر فكره ليحيط باطراف هذا الموضوع الواسع وبجميع ما يرتبط به
 من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع اسرارها فيرى صورة
 لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسماً . يرى المرأة التي يهيئها
 المستقبل تلاً في انوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولا بسة حلة
 كما لها الثنائي : الجسم والعقل .

العائلة

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى
تكميل نظام العائلة . نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال
نظام العائلة ولكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد
والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير في ارتقاء المرأة وانحطاطها .
ولهذا رأينا من الضروري استلفات الذهن الى اهم المسائل التي تمس
بحياة العائلة وهي الزواج وتعدد الزوجات والطلاق . وسنتكلم عليها
باختصار على هذا الترتيب :

✽ الزواج ✽

رأيت في كتب الفقهاء انهم يعرفون الزواج بانه " عقد يملك به
الرجل بضع المرأة " وما وجدت فيها كلمة واحدة تشير الى ان بين
الزوج والزوجة شيئاً آخر غير التمتع بقضاء الشهوة الجسدانية . وكلها خالية

عن الإشارة الى الواجبات الادبية التي هي اعظم ما يطلبه شخصان مهذبان كل منهما من الآخر .

وقد رأيت في القرآن الشريف كلاماً ينطبق على الزواج ويصح ان يكون تعريفاً له ولا اعلم أن شريعة من شرائع الامم التي وصلت الى اقصى درجات التمدن جاءت باحسن منه . قال الله تعالى : " ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة " . والذي يقارن بين التعريف الاول الذي فاض من علم الفقهاء علينا والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله يرى بنفسه الى اي درجة وصل انحطاط المرأة في رأي فقهاءنا وسرى منهم الى عامة المسلمين . ولا يستغرب بعد ذلك أن يرى المنزلة الوضيعة التي سقط اليها الزواج حيث صار عقداً غاية أن يتمتع الرجل بجسم المرأة ليتلذذ به وتبع ذلك ما تبعه من الاحكام الفرعية التي رتبوها على هذا الاصل الشنيع . فهذا النظام الجميل الذي جعل الله اساسه المودة والرحمة بين الزوجين آل أمره بفضل علمائنا الواسع الى أن يكون اليوم آلة استمتاع في يد الرجل وجرى العمل على اهمال كل ما من شأنه ان يوجد المودة والرحمة وعلى التمسك بكل ما يخجل بهما :

فمن دواعي المودة أن لا يقدم الزوجان على الارتباط بعقد الزواج الا بعد التأكد من ميل كل منهما للآخر . ومن مقتضى الرحمة أن يحسن كلاهما العشرة مع بعضهما . ولكن لما غفلنا عن معنى الزواج الحقيقي

الشرعي استخففنا به وتهاونا بواجباته وكان من نتائج ذلك ان يتم عقد الزواج قبل ان يرى كل من الزوجين صاحبه

بيننا فيما سبق ان جميع المذاهب في اتفاق على ان نظر المرأة المخطوبة مباح لخاطبها وذكرنا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم امر به احد الانصار ان ينظر الى خطيبته وهو قوله : " انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما " . فما بالنا اهملنا هذه النصيحة على ما فيها من الفائدة مع اننا نتمسك بغيرها مما يقل عنها في الاهمية ؟ - ذلك لان الجاهل من عاداته ان يميل الى ما يضره وينفر مما ينفعه

كيف يمكن لرجل وامرأة سليمي العقل قبل ان يتعارفا ان يرتبطا بعقد يلزمهما ان يعيشا معاً وان يختلطا كمال الاختلاط ؟ ارى الواحد من عامة الناس لا يرضي ان يشتري خروفاً او جحشاً قبل ان يراه ويدقق النظر في اوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه . وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار امامهما الفكر ! لعلك تقول ان المرأة ترى خطيبها من الشباك مراراً وان الرجل يعرف بواسطة امه أو أخته أو صاف خطيبته مثل سواد شعرها وبياض خدودها وضيق فمها واعتدال قوامها ورزاقه عقلها وما اشبه ذلك فيكون عنده علم بما هي عليه من جمال وشمائل . - نقول هذا قد يكون . ولكن كل هذه الصفات متفرقة لا تفيد صورة ما ولا يمكن ان ينبعث عنها ميل الى طلبها لتكون عشيرة تطمئن لصحبتها النفوس وتعلق بها وبنسلبها

الآمال . وانما الذي يهيم الانسان البصير هو ان يرى بنفسه خلقاً حياً
يفتكر ويتكلم ويفعل . خلقاً يجمع من الشرائع والصفات ما يلائم ذوقه
ويتفق مع رغباته وعواطفه .

كثيراً ما يرى الواحد شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك وبمجرد ما يقع
عليه نظره تنفر منه نفسه في الحال نفوراً تاماً ولا يعلم لذلك سبباً .
وربما يستقبح الناظر شخصاً على بعد ولكنه متى دنا منه وفاض الحديث
بينهما تبدل عنده ما وجد منه اولاً بضده . وربما زين لاول نظرة منك
صورة يظهر عليها بهاء الجمال حتى اذا دنوت منها تبدل ذلك الاحساس
بضده لاول كلمة تصدر منها . وخصوصاً ان هذا الاحساس المادي سواء
كان ميلاً او نفوراً لا يتعلق بجمال وقبح المنظر ولا يحس به جميع الناس
على طريقة واحدة . فان الانسان الواحد يكون منظره سبباً للنفور عند
شخص ولليل عند شخص آخر !

فهذه الجاذبة الحسية لا بد منها عند الزوجين . وهي ان لم تكن
ضرورية بين رجل وامرأة يطلبان الزواج مع بعضهما فلا ارى في اي
شيء آخر تكون لازمة !

على ان الانجذاب المادي ليس كافياً في الزواج بل يلزم ان يوجد
ايضاً توافق بين نفوس الزوجين . اي انه يوجد - لا اقول اتحاداً لانه
مستحيل - وانما ائتلاف بين ملكاتهما واخلاقهما وعقولهما : ولا تأتي معرفة
وجود هذا التوافق وعدم وجوده الا اذا خالط كل منهما صاحبه ولو قليلاً

ولا يختلف اثنان في ان الزواج الذي يبنى على هذا التوافق يكون
امراً محترماً في نفوس الزوجين وتكون عقده من المتانة بحيث لا يسهل
انحلالها ويكون ايضاً موجباً للعفة والتصون . وعندى ان كل زواج
لا يؤسس على هذا الائتلاف فهو صفقة خاسرة لا خير فيها لاحد من
الزوجين مهما طال اجل الزواج ومهما كانت صفات الرجل والمرأة . ولهذا
قال الاعمش : « كل تزويج يقع على غير نظر فامرهم غم »

ولما كان الزواج لا يراعى فيه اليوم هذا الشرط كانت الرابطة بين
الزوجين واهية العقد تتحل لأول عرض يطراً عليها . واغلب ما يكون
من ذلك لا سبب له الا رغبة كل منهما في الخروج من قيد لا يرى
وجهاً للمحافظة عليه والتنصل من امر لا قيمة له في نفسه .

وكل ذي ذوق سليم يرى من الصواب ان يكون للمرأة في انتخاب
زوجها ما للرجل في انتخاب زوجته فانه امر يهمها اكثر مما يهم ذوي
قرباتها . اما حرمانها من النظر في كل ما يختص بزواجها وقصر الرأي
في ذلك على اوليائها دون مشاركة منها لهم فهو بعيد عن الصواب

قضت العادة عندنا ان يجتنب الحديث مع البنت فيما يتعلق بالرجل
الذي خطبها فلا يصلها خبر عن صفاته واخلاقه ولا تسأل هل تحب
الاقتران به ولا يبحث احد عن ذوقها ورغبتها وميلها وهي لا تجد من
نفسها جراءة على ان تبدي ما في ضميرها . ويرى الناس انه لا يليق
بالمرأة ان يكون لها صوت في اهم الاشياء لديها فيعطي القريب او البعيد

رأيه في زواجها ما عداها ويظنون ان هذا من تمام فضيلة الحياء وكمال
الادب : وهم مخطئون فيما يظنون

منحت شريعتنا السماح الى النساء حقوقاً لا تنقص عن حقوق
الرجل في الزواج . فلها الحق مثله في ان تتأكد بنفسها من امكان
تحقيق آمالها . وما علينا الا ان نسمع صوت شريعتنا ونتبع احكام
القران الكريم وما صح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم واعمال الصحابة
لنتم لها السعادة في الزواج

جاء في الكتاب العزيز : " ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف "
 وكان ابن عباس يقول اتباعاً لهذه الآية الكريمة : " اني احب ان اتزين
 لامرأتي كما احب ان تزين لي " وقال تعالى : " وعاشروهن بالمعروف "
 وقال في تعظيم حقهن : " واخذن منكم ميثاقاً غليظاً " وجاء عن النبي صلى
 الله عليه وسلم : " اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم خلقاً والطفهم باهله " . وكان
 النبي صلى الله عليه وسلم يحب النساء كما ورد في الحديث : " حبب الى
 من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة "
 وكان يحترم النساء احتراماً برهن للعالم على حسن خلقه حتى انه كان
 يضع ركبته على الارض لتضع زوجته عليها رجلها اذا ارادت أن تركب .
 وكان يتنازل الى ملاعبتهن وممازحتهن حتى روى انه كان يسابق عائشة رضي
 الله عنها فسبقته يوماً وسبقها في بعض الايام فقال : " هذه بتلك " . وكان
 يراف بالنساء ويوصي عليهن دائماً . فما روى عنه قوله : " خياركم خياركم

لنساءكم» . وقوله : « استوصوا بالنساء خيراً » . والاحاديث في هذا الموضوع كثيرة كلها تدل على ان الدين الاسلامي يحث على اعتبار المرأة واحترام حقها ومعاملتها بالاحسان والمعروف .

ولكن ما دامت المرأة على ما هي عليه اليوم من الجهل فالزواج لا يكون - كما هو الآن - الاشكلاً من الاشكال العديدة التي يستبد بها الرجل على المرأة

اما اذا تعلمت المرأة حقوقها وشعرت بقيمة نفسها عند ذلك يكون الزواج الوسطة الطبيعية لتحقيق سعادة الرجل والمرأة معاً / عند ذلك تؤسس الزوجية على انجذاب شخصين يجب احدهما الآخر حباً تاماً بجسمها وقلبها وعقلها . عند ذلك تعيش المرأة تحت حكم عقلها فتنتخب من بين الرجال من تحبه وتميل اليه وترتبط به بعقد الزواج ويعرف اهلها أن في كمال عقلها ما يكفي لحسن اختيارها فيكونون معها على اتفاق في الرأي فلا تخشى غضبهم ولا انتقاد الناس عليها . عند ذلك يعرف الرجال قيمة النساء ويزدقون لذة الحب الحقيقي

انظر الى زوجين متحابين تجدهما من اليوم في نعيم الجنة . ماذا يهمهما أن يكون الصندوق خالياً من المال او أن يكون على المائة عدس وبصل ؟ أما يكفيهما فرح القلب في كل دقيقة تمر من اليوم : هذا الفرح الذي يبعث النشاط في الجسم والطمأنينة في النفس ويحيي في القلب شعوراً بلذة الحياة ويزينها له ويخفف ثقلها عليه ويجعلها منه

في مكان الرضى حتى قال عمر ابن الخطاب : " ما اعطي العبد بعد الايمان خيرا من امرأة سالحة " .

أين هذا من حال عائلتنا اليوم التي نرى فيها الزوجين واحدهما ابعد الناس عن الآخر . ولو لم يكن الا هذا البعد لحف احتماله . لكن لما كان في طبيعة الانسان أن يجري وراء سعادته كان كل من الزوجين يعتقد أن صاحبه هو الحجاب الحائل بينه وبينها . ومن هذا الاعتقاد يتكون في المنزل جو مشحون بالغيام والكهرباء يعيش فيه كل منهما وقلبه ملآن بعيوب الآخر . وتبدو فيه المناقشات والمخاصمات في كل آن بسبب وبغير سبب في الصباح وفي المساء حتى وفي الفراش .

وتنتهي هذه الحالة بان تختلي المرأة عن بيتها الى الخدم يفعلون فيه ما يشاءون . فيستولى الاختلال على ما فيه وتظهر فيه آثار الاهمال فيبدو للناظر اليه كأنه غير مسكون باهله ويعلو التراب فراشه والقذر موائده وتغفل شؤون الزوج والاولاد في مأكلهم ومشربهم وملابسهم . ونقضي الزوجة اوقاتها في مكان واحد تفكر في سوء ما وصلت اليه او تترك منزلها من الصباح وتطوف على جاراتها لتفرج عن نفسها تلك الهموم .

وليس الرجل باحسن منها حالا : فانه يهجر منزله ويستريح الى العيش في القهاوي او عند جيرانه . فاذا رجع الى بيته طلب العزلة عن زوجته والتزم السكوت .

نتج مما تقدم أن الزواج على غير نظر كما هو حاصل الآن انما هو طريقة يستعملها الرجل في الغالب للاستمتاع بعدد من النساء يدخلن في حيازته دفعة واحدة او على التعاقب ولا تجد فيه المرأة مزية ترضي نفسها . وكل رجل يقصد من الزواج ان تكون له صاحبة تشاركه في السراء والضراء يصعب عليه بل قد يتعذر ان يبلغ ما يريد من ذلك . ولهذا السبب رأينا في هذه السنين الاخيرة كثيراً من الشبان القادرين على الزواج لا يرغبون فيه . ولما كان عدد الرجال المهذبين يزداد في كل سنة — لان الشعور بوجوب تربية البنين تقدم وسينقدم كثيراً في المستقبل — صارت تربية المرأة على مبدأ التعليم والحرية امرأ ضرورياً لا يستغنى عنه . والا فما علينا الا أن نعلن ان الثقة بالزواج قد فقدت وان المعاملة به قد بطلت وحق عليه الافلاس .

ولست مبالغاً ان قلت ان رجال العصر الجديد يفضلون العزوبة على زواج لا يجدون فيه آمانهم المحبوبة . فانهم لا يرضون الارتباط بزوجة لم يروها وانما يطلبون صديقة يحبونها وتحبهم لا خادمة تستعمل في كل شيء . ويطلبون ان تكون ام اولادهم على جانب من العلم والخبرة يسمح لها بتربية اولادها على مبادئ الاخلاق الحسنة وقواعد الصحة . وكل من تجرد عن التعصب وحب التمسك بالعوائد القديمة لا بد ان ينشرح صدره عند ما يرى نمو هذا الميل في نفوسهم ويرى من نفسه وجوب الاصغاء الى مقالهم والنظر في مطالبهم فلا يستهجنها لاول

وهلة ولا يرميهم بالتفرنج في آرائهم قبل البحث فيها . بل يزنها بميزان العقل والشرع ومتى ثبت له ان هذا التغيير الذي نطلبه ليس الا رجوعاً في الحقيقة الى اصول الدين وعوائد المسلمين السابقين وانه اصلاح يقضي به العقل السليم لا يتأخر عن مساعدتهم على تأييدها .

٢

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات هو من العوائد القديمة التي كانت مألوفة عند ظهور الاسلام ومنتشرة في جميع الانحاء يوم كانت المرأة نوعاً خاصاً معتبرة في مرتبة بين الانسان والحيوان . وهو من ضمن العوائد التي دل الاختبار التاريخي على انها تتبع حال المرأة في الهيئة الاجتماعية فتكون في الأمة غالبية عند ما تكون حال المرأة فيها منخطة ونقل أو تزول بالمرّة عند ما تكون حالها مرتقية . اللهم الا اذا كان التعدد لاسباب خاصة قضت به عند فرد أو افراد مخصوصين فتقف عندهم وتقدر بقدرهم . حتى في الأمة التي ألف تعدد الزوجات فيها نرى الرجل اذا بلغ من كمال العقل ما يشعر معه بمنزلة زوجته من أهله واولاده وعرف أن من حقوقها ان تكون في المرتبة التي تستحقها بمقتضى الشرع والفترة مال الى الاكتفاء بالواحدة من الزوجات . ويمكن الاستدلال على ذلك بما نشاهده ولا نظن احداً ينازعنا فيه من ان هذه العادة خفت

في بعض الطبقات من اهل بلادنا عما كانت عليه من قبل عشرين
أو ثلاثين سنة .

نعم ان منع الرقيق كان له أثر محمود في سقوط هذه العادة حيث
قطع ورود الجوارى التي كانت تملأ بيوت اكابر القوم واعيانهم . ولكن
يظهر لي ان ترقى عقول الرجال وتهذيب نفوسهم له أثر مهم ايضاً في
تلاشيها . ذلك لأن الرجل المهذب لا يرضى معاملة المرأة بالاستبداد
ولا تطاوعه مروءته ان همت شهوته بامتهانها .

وبديهي أن في تعدد الزوجات احتقاراً شديداً للمرأة لانك لا
تجد امرأة ترضى ان تشاركها في زوجها امرأة اخرى كما انك لا تجد
رجلاً يقبل ان يشاركه غيره في محبة امرأته . وهذا النوع من حب
الاختصاص طبيعي للمرأة كما انه طبيعي للرجل . ولو سلم انه ليس
بطبيعي كما ذهب الى ذلك قوم استشهدوا على رأيهم بمثل الديك الواحد
الذي يعيش بين العشرات من الدجاج فاقل ما فيه انه ميل مكتسب
بلغ من النفس الانسانية بالعادة والتوارث مبلغ جميع الكمالات التي تولدت
في نفوس افراد هذا النوع عند ارتقائه من ادنى درجاته من الحيوانية
الى ما اعد له من الكمال الانساني . فهذا الاختصاص بما كسبه من
التأصل في النفس والرسوخ فيها لا يقل اثره عن اثر الغرائز الفطرية
وعلى كل حال فكل امرأة تحترم نفسها تتألم اذا رأت زوجها
ارتبط بامرأة اخرى اذ لا يخلو حالها من احد امرين : اما ان تكون

مخلصة في محبتها لزوجها فتلتهب نيران الغيرة في قلبها وتذوق عذابها .
 واما ان لا تكون كذلك لكنها راضية بعشرته لسبب من الاسباب فهي
 مع ذلك ترى لنفسها مقاماً في اهله فاذا ارتبط باخرى سواها قاست
 من الالم ما يبعثه احساسها بان ذلك المقام الذي كان باقياً لها قد انهدم
 ولم يعد لها امل في بقاء شيء من كرامتها عنده . فالالم لاصق بها على
 كل حال

وان قيل ان التجارب دلت على امكان الجمع بين امرأتين أو أكثر
 مع ظهور رضاء كل منهن بحالتها . فالجواب عنه من وجهين : الاول
 ان ما يدعي من رضاء كل منهن بحالها فليس بصحيح الا في بعض افراد
 نادرة لا حكم لها في تقدير حال امة وان وقائع المنازعات بين النساء
 وازواجهن والجنايات التي تقع بينهم مما لا يكاد يحصى . وهو شاهد
 على ان تعدد الزوجات مثار للنزاع بينهن وبين ضرائهن وبين
 ازواجهن ومصدر لشقاء الاهل والاقارب . فمن يدعى ان نساءنا يرضين
 بمشاركتهن في ازواجهن ويعشن مع ذلك باطمئنان قلب وراحة بال فهو
 غير عارف بما عليه حالة النساء في البيوت .

والثاني ان ما يكون من ذلك الرضاء في القليل النادر فهو ناشئ
 عن ان المرأة انما تعتبر نفسها متاعاً للرجل فله ان يختص بها وله أن يشرك
 معها غيرها كيفما شاء . وليس لها على هواه حق تطالبه به : كما كان الرجال
 عندنا يعتبرون انفسهم متاعاً للحكام في عهد ليس بعيداً عنا !

ويظهر لي أن رجلاً مهذباً عارفاً بما يفرضه عليه الشرع والعدل لا يطبق النهوض بما يضعه على عاتقه الجمع بين امرأتين فضلاً عن أكثر .
 قدمنا ان في فطرة المرأة ميلاً الى التسلط على قلب الرجل . فاذا رأت بجانبه امرأة اخرى في فطرتها ذلك الميل ويمكنها ان تبلغ منه بضروب الوسائل ما تشتهي تولاهها الاضطراب والقلق وهجرتها الراحة وكانت حياتها عذاباً اليماً . وتلك الحال لا تخفى على الرجل المهذب . فكيف يمكن أن تطيب نفسه بمشهد ذلك العذاب الاليم ؟

ويزيد النساء قلقاً واضطراباً ما صرح به الفقهاء من انه لا يجب على الرجل أن يعدل في محبته بين نسائه وانما طلبوا العدل في النفقة وما شاكلها

ولا ريب في أن شقاء المرأة بهذه الحال يكون له أثر شديد في نفس الرجل المهذب حيث يشعر دائماً بانه هو السبب في هذا الشقاء .
 ثم ان الاولاد من امهات مختلفات ينشأون بين عواصف الشقاق والخصام فلا يجدون ما يساعد غرائزهم على تمكين علائق المحبة بينهم . بل يجدون ما يعاكس تلك الغرائز وينجي في نفوسهم البغضاء ولا يستطيع احد ان يحول بين ما يشهدون من تخاصم امهاتهم بعضهم مع بعض وتخاصمهم مع والدهم وبين اثر ذلك في نفوسهم . بل يسرى في افئدتهم سم الغش والخدعة والشر ويظهر اثر كل ذلك عند الفرصة : مثلهم كمثل الممالك الاوروباوية تظهر بحالة السلم وهي تاخذ اهبتها للحرب

حتى اذا حانت الفرصة وثب كل منهم على الآخر فمزق بعضهم بعضاً كما
نشاهد في اغلب العائلات .

اين هذا من منظر عائلة متحدة يعيش فيها الاولاد في حضن
والديهم . تجمعهم محبة صادقة . لا يتنافسون الا في زيادة الحب ولا
يتسابقون الا الى الخير يصل من بعضهم لبعض . يربطهم ميثاق غليظ جعلهم
كاعضاء جسم واحد ان فرح احد هم فرحوا معه وان بكى بكوا معه .
هم سعداء الدنيا في كل حال . اسبغ الله عليهم اكبر نعمة يتمناها العاقل
وهي المودة في القربى .

فلا ربة بعد هذا ان خير ما يعمله الرجل هو انتقاء زوجة واحدة .
ذلك ادنى ان يقوم بما فرض عليه الشرع فيوفي زوجته واولاده حقوقهم
من النفقة والتربية والمحبة واقرب الى الوصول الى سعادته .

ولا يعذر رجل يتزوج اكثر من امرأة : اللهم الا في حالة الضرورة
المطلقة كأن اصببت امرأته الأولى بمرض مزمن لا يسمح لها بتأدية
حقوق الزوجية . اقول ذلك ولا احب ان يتزوج الرجل بامرأة اخرى
حتى في هذه الحالة وامثالها حيث لا ذنب للمرأة فيها . والمروءة تقضي
أن يتحمل الرجل ما تصاب به امرأته من العلل كما يرى من الواجب
ان تتحمل هي ما عساه كان يصاب به .

وكذلك توجد حالة تسوغ للرجل ان يتزوج بثانية اما مع المحافظة
على الاولى اذا رضيت أو تسريحها ان شاءت : وهي ما اذا كانت عاقراً

لا تلد لان كثيراً من الرجال لا يتحملون أن ينقطع النسل في عائلاتهم .
 أما في غير هذه الاحوال فلا أرى تعدد الزوجات الاحيلة
 شرعية لقضاء شهوة بهيمية . وهو علامة تدل على فساد الاخلاق واختلال
 الحواس وشبهه في طلب اللذائذ .

والذي يطيل البحث في النصوص القرآنية التي وردت في تعدد
 الزوجات يجد انها تحتوي اباحة وحظراً في آن واحد . قال تعالى :
 « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتهم
 ان لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم . ذلك ادنى ان لا تعولوا » .
 « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء . ولو حرصتم فلا تميلوا كل
 الميل فتذروها كالمعلقة . وان تصلحوا وثقوا فان الله كان غفوراً رحيماً » .
 ومن هذه الآيات يتضح أن الشارع علق وجوب الاكتفاء بواحدة
 على مجرد الخوف من عدم العدل ثم صرح بان العدل غير مستطاع .
 فمن ذا الذي يمكنه ان لا يخاف عدم العدل مع ما نقرر من ان العدل
 غير مستطاع ؟ وهل لا يخاف الانسان من عدم القيام بالمحال ؟ اظن
 ان كل بشر اذا اراد الشروع في عمل غير مستطاع يخاف بل يعتقد انه
 يعجز عن القيام به والوقوع في ضده .

ولو أن ناظر آفي الايتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات
 لما كان حكمه هذا بعيداً عن معناها لولا ان السنة والعمل جاء ابما
 يقتضي الاباحة في الجملة .

وكان مجموع الآيتين قد قضى بتحليل الجمع بين الزوجات ديانة
وبان الله تعالى وكل الناس في ذلك الى ما يجدونه من انفسهم . فمن
بلغت ثقته من نفسه حداً لا يخاف معه ان يجور اذا اراد ان يتزوج
اكثر من واحدة ابيح له ذلك بينه وبين الله . ومن لم يصل الى هذا
الحد من الاقتدار والتحفظ من الجور حرم عليه ان يتزوج اكثر من
واحدة . ثم نبه مع ذلك على ان هذه الغاية من قوة النفس لا يمكن
ادراكها زيادة في التحذير .

وغاية ما يستفاد من آية التحليل انما هو حل تعدد الزوجات اذا
أمن الجور . وهذا الحلال هو كسائر انواع الحلال تعتريه الاحكام
الشرعية الاخرى من المنع والكرهه وغيرها بحسب ما يترتب عليه من
المفاسد والمصالح . فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو
مشاهد في ازماننا او نشأ عن تعدد الزوجات فساد في العائلات وتعد
للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين اعضاء العائلة الواحدة
وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاماً جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة
أن يمنع تعدد الزوجات بشرط او بغير شرط على حسب ما يراه موافقاً
لمصلحة الامة .

وانه ليحمل برجال هذا العصر أن يقلعوا عن هذه العادة من
انفسهم ولا اظن أن احداً من اهل المستقبل يأسف على تركها .
فان التمتع بالنساء وان قل في هذه الحالة من الجهة الشهوانية فانه يزيد
تحرير المرأة

من الناحية المعنوية التي يلزم ان تكون وجهة كل راغب في الزواج . فان رجلاً يسوقه الى الزواج سائق العقل ويوجهه رغبته اليه حادى الفكر يعلم انه انما يتخذ لنفسه بالزواج قريناً صالحاً يمدّه بالمعونة في شؤونه ويؤنسه في وحدته ويشفعه في عمله ويقوم معه على بنيه ومن يعول من اهله . فهو يتخير لذلك خير العقائل واكرم السلائل ويصطفيا على ما يجب من العقل والادب وطهارة الظاهر وسلامة الباطن فيكون له منها منظر بهي وملس شهى وصورة تعجب ومعنى يطرب . فهم يسبق الاشارة وذكاء يستغنى عن العبارة . لذة بلطف الشمائل ومتاع بجمال الفضائل .

كل ذلك يكون له من زوجة يختارها لتكون صاحبة له مدة الحياة تأمن شره وانتقابه ويأمن منها المكر والخلافة . تحسن القيام على اولاده بالتربية الصالحة . وتغذيهم بادابها كما غذتهم بلبانها . فتأخذ ارواحهم من روحها ما اخذته ابدانهم من بدنها . فينشأون على المحبة ويشبون على الالفة فيكون للرجل من ذلك كله مشهد ظاهره الراحة والطمانينة وباطنه السعادة والهناء . عيش ساعة مع التمتع به خير من حياة دهر مع الحرمان من بعضه . فاين التمتع بمثل هذه اللذة من الخلود الى ما انحط من دركات الشهوة ؟

٣

« الطلاق »

قال فولتير الكاتب الفرنساوي الشهير على طريقته من الفكاهة

المعروفة في كثير من مؤلفاته : « ان الطلاق قد وجد في العالم مع الزواج في زمن واحد تقريباً غير اني اظن الزواج اقدم ببضعة اسابيع . بمعنى ان الرجل ناقش زوجته بعد اسبوعين من زواجه ثم ضربها بعد ثلاثة ثم فارقها بعد ستة اسابيع . » وقد اراد بذلك أن يقول ان الطلاق قديم في العالم وانه يكاد ان يكون من الاعراض الملازمة للزواج . وهو حق لا يرتاب فيه فقد دل تاريخ الأمم على ان الطلاق كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان وانه لم يمنع الا في الديانة المسيحية بعد مضي زمن من نشأتها .

ولا يزال أثر ذلك المنع باقياً الى الآن في شرائع الأمم الغربية التي وضعت الزواج على قاعدة انه عقد لا ينحل الا بموت احد الزوجين . وهذا افراط في احترام هذا العقد ومغالة فيه الى حد يصعب أن يتفق مع راحة الانسان

نعم أن من امانى الأمم الصالحة ان تكون عقدة الزواج عندها عقدة لا تنحل الا بالموت . ولكن مما تجب مراعاته ان الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر .

ولهذا فقد شعرت الأمم الغربية على ممر الأزمان بان أحكام الكنيسة تطالب الناس بالكمال المطلق بدون مراعاة حاجاتهم وضرورتهم . وكان هذا الشعور من بواعث حركة النفوس الى التخلص من رقة تلك الاحكام فنزع الغربيون الى وضع القوانين على حسب مصالح حياتهم

وما تقتضيه الحاجات . ولقد اشتد هذا الشعور في الناس حتى اضطرت الكنيسة نفسها لأن تخضع لمطالبه وموافاة رغائب الكافة وحملها الشح بمكانتها أن تسقط على تقرير احكام في احوال سميتها " احوال بطلان الزواج " . وربت على ذلك البطلان احكاماً لا تختلف في آثارها عن احكام الطلاق . فقبلت فسخ الزواج اذا اثبت احد الزوجين انه لم يكن عند الزواج مطلق الاختيار أو انه اخطأ في معرفة الآخر أو اذا ادعى احد الزوجين ان الآخر لا يستطيع القيام بحقوق الزوجية . واخذت تتوسع في تأويل الحالة الثانية الى درجة متناهية حتى ادخلت فيها كل شيء . وفي الحالة الاخيرة قد تكفي بأن يتفق الزوجان على ان يدعى احدهما ان الآخر لم يقم أو لم يعد في امكانه أن يقوم باول واجب يوجبه الزواج لينال بطلانه محتجة بأن الاخلال بهذا الحق لا تمكن معرفته الا من قبل الزوجين فقولها هو الدليل الذي يصح التعويل عليه .

الا ان هذا التساهل لم يف بحاجات الأمم في هذا الباب . فبعد أن قنعت به مدة من الزمان انبعثت مرة أخرى الى المطالبة بتقرير احكام كافية للراحة . خصوصاً وقد رأيت ان هذه الاسباب التي قررتها الكنيسة لبطلان الزواج تعاب فيها الحيلة وقل ما نتفق فيها الحقيقة . وأن قيام شريعة على قوائم من الحيل مما لا ترضاه النفوس المهذبة والاذواق السلمية .

ومن اجل ذلك اضطرت الحكومات الى تقرير الطلاق والتصريح
 بجوازه على شروط بينها واوسعت له محلاً من قوانينها . وهكذا انحسر
 سلطان الكنيسة عما كان يتناوله في هذه المادة كما بطلت سيطرتها في
 كل ما لم تتفق فيه احكامها مع مصالح تلك الامم . وهذا هو الشأن في
 كل شرع او دين لا يراعى اهله في احكامه مقتضيات الزمان والمكان
 ويغفلون عن طبيعة الانسان ويقفون به في مكان واحد عند ما قرره
 بعض من سبقهم بدون انعام نظر في اسراره وطرق تنفيذه .

دخل الطلاق في جميع الشرائع الغربية تقريباً رغماً عن معارضة
 الكنيسة واصرارها على القول بأن من طلق بحكم القانون لا يجوز له ان
 يتزوج لعدم اعتبارها ذلك الطلاق . ولكنه لم يصل الى الدرجة التي
 يستحقها من القبول والاعتبار ولم يستوف احكامه الا عند الامة
 الامريكانية التي فاقت غيرها ببذلها المجهود في الاقدام على طلب الترقى
 ففتحت ابواب شريعته للطلاق ولم تقيده باحوال مخصوصة كما قيده غيرها
 وكل مطلع على احوال الامم الغربية يرى الميل عند جميعها الى
 التوسع في الطلاق ولا بد ان تنتهي يوماً الى الاعتراف بان ما اباحته
 الى الان من الطلاق المشروط بثبوت الزنا على احد الزوجين او الحكم
 عليه بعقوبة في احوال مخصوصة غير واف بالحاجة . وعند ذلك تقرر
 اباحة الطلاق متى وجدت اسبابه في نفوس الزوجين ونتركه
 الى مشيئتهما

نعم ان اباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر . ولكنه من
المضرات التي لا يستغنى عنها ويكفي لتسويغه ان منافعه تزيد عن
مضاره . فان كل نظام لا يخلو من ضرر والكمال التام في هذه الحياة
الدينا امر غير مستطاع

ونحن لا نزيد البحث في هذا الموضوع الواسع لاننا اجتنبنا في هذا
المختصر كل بحث نظري . وانما نقول ان من اجل النظر في نصوص
الكتاب العزيز وما اشتمل عليه من الآيات المقررة للطلاق واحكامه
يشعر بالنعمة التي افاضها الله على المسلمين ويقنع بأن كتاب الله قد أتى
من الحكمة على منتهى ما وانه وفي كل شيء حقه .

واول ما يجب الالتفات اليه هو أن شرعنا الشريف قد وضع
اصلاً عاماً يجب أن ترد اليه جميع الفروع في احكام الطلاق وهو أن
الطلاق محظور في نفسه مباح للضرورة . والشواهد على ذلك كثيرة
في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وما جاء في كلام الائمة نورد منها
ما يأتي :

قال تعالى : « فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله
فيه خيراً كثيراً »

وقال جل شأنه : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله
وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما »

وقال تعالى : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً او اعراضاً فلا

جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . واحضرت الانفس
 الشخ . وان تحسنوا وتنقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً .
 وجاء في الحديث : « ابغض الحلال عند الله الطلاق » . وقال
 عليه الصلاة والسلام : « لا تطلقوا النساء الا من ربه . ان الله لا يحب
 الذواقين ولا الذواقات » . وقال علي كرم الله وجهه : « تزوجوا ولا
 تطلقوا فان الطلاق يهتزم منه العرش » .

وجاء في حواشي ابن عابدين : « أن الاصل في الطلاق الحظر
 بمعنى انه محذور الا لعارض يبيحه وهو معنى قولهم الاصل فيه الحظر
 والاباحة للمحاجة الى الخلاص . فاذا كان بلا سبب اصلاً لم يكن فيه
 حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران بالنعمة
 واخلاص الايذاء بالمرأة وباهلها واولادها . ولهذا قال تعالى : « فان
 اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » اي لا تطلبوا الفراق « انتهى (١)

والمطلع على كتب الفقه وان كان يجد ان جميع الائمة قد نظروا على
 العموم الى هذا الاصل الجليل الذي من شأن العمل عليه تضيق دائرة
 الطلاق بما يصل اليه الامكان . لكنه لا بد أن يلاحظ ايضاً انهم لم
 يراعوا في التفرع تطبيق هذا الاصل على طريقة واحدة متساوية . ويرى
 ان الفقهاء من اتباع الائمة قد توسعوا في امر الطلاق ولم تطرد طريقتهم
 على وتيرة واحدة في تطبيق الاحكام على الوقائع . وهذا الاختلاف

يشاهد على الخصوص في ثلاث مسائل كلها جديرة بالالتفات :
 اولها مسألة وقوع الطلاق الصريح بدون اشتراط النية - فقد
 خالف بعض الفقهاء خصوصاً من المذهب الحنفي في هذه المسئلة الاصول
 العامة التي بنى عليها معظم احكام الشريعة وفاضت بها نصوص الكتاب
 والسنة كالأصل المقرر لعدم تكليف المكره والغافل والمخطيء واخرج
 الطلاق من مشمول هذا الاصل فقضى بوقوعه على المكره والمخطيء
 والهازل والسكران مع تعريفهم السكران بأنه هو الذي لا يميز السماء من
 الارض .

وظاهر ان اهل هذا الرأي لم يعولوا على النية التي هي اساس الدين
 الاسلامي كما يستفاد من حديث " انما الاعمال بالنيات " . كما انهم لم
 يلتفتوا الى قصد الشارع في ان الطلاق محظور في الاصل وانه ابغض
 الحلال عند الله . وقد عللوا نفاذ الطلاق في الاحوال التي اشرنا اليها
 باسباب اذكرها للقاريء واترك له مسؤولية الحكم عليها :

قرأت في كتاب الزيلعي ما معناه " ان طلاق الهازل والمخطيء
 يقع لان لفظ الطلاق ذكر على لسان الزوج . وان طلاق المكره يقع
 لانه عرف الشرين واختاراهونهما . واما السبب في وقوع طلاق
 السكران فلا أنه ارتكب معصية فيكون نفاذ الطلاق زجراً له " (٢)

ولكننا نحمد الله على ان في المذاهب الاسلامية الاخرى ما يخالف

ذلك ويتفق مع اصول الشريعة ومصلحة العامة ويمكن لمريد الاصلاح ان يأخذ به فيقرر بعدم صحة الطلاق الذي يقع في تلك الاحوال .
 ثانيها - ان الطلاق الذي نص عليه القران هو واحد رجعي دائماً . قال تعالى : " يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة وانقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مينة . وتلك حدود الله ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امراً . فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم " . وقال تعالى : " وبعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادا اصلاحاً " .
 ولكن قسم الفقهاء الطلاق الى صريح وبالكناية وقالوا بالطلاق الصريح تقع واحدة رجعية ولو نوى اكثر من واحدة او نوى واحدة بائنة . اما بالكناية فيكون الطلاق بائناً لا تصح بعده الرجعة ولا تحل الزوجة الا بعقد جديد الا في بعض الفاظ استثنوها ويقع بها الطلاق ثلاثاً ان نوى الثلاث .

الا انه يوجد في مذهب آخر مذهب الشافعي رضى الله عنه ان الكنايات جميعها رجعية . ووجه الحق في هذا المذهب ظاهر فانما الطلاق طلاق على كل حال وهو فصل عصمة المرأة من الرجل .
 فاختلف الالفاظ بالنسبة الى هذا المعنى انما هو اختلاف عبارة لا يصح ان يتعلق به اختلاف حكم . ولو سلم اختلاف الاحكام باختلاف تحرير المرأة

الالفاظ في مثل هذا الباب لكان الاوجه ان يكون حكم الكناية اخف من حكم الصريح .

ثالثها — اتفق اغلب المذاهب على ان الطلاق ثلاثاً متفرقة في حيض واحد او في مرة واحدة و بلفظ واحد يقع ثلاثاً . على ان هذا النوع من الطلاق الذي اعترف الفقهاء انفسهم بانه بدعي — اي مخالف للكتاب والسنة — لا يمكن تصوره على الكيفية التي قررها الفقهاء ونصوص القرآن كلها تأبى تأويلهم . قال تعالى : " الطلاق مرتان فامسك بمعروف او تسريح باحسان " . وجاء في تفسير هذه الآية في كتاب حسن الاسوة : " وانما قال سبحانه مرتان ولم يقل طلقان اشارة الى انه ينبغي ان يكون الطلاق مرة بعد اخرى لا طلقان دفعة واحدة . كذا قال جماعة من المفسرين " . وجاء فيه ايضاً : " قد اختلف اهل العلم في ارسال الثلاث دفعة واحدة هل تقع ثلاثاً او واحدة فقط . فذهب الى الاول الجمهور وذهب الى الثاني من عداهم وهو الحق . وقد قرره العلامة الشوكاني في مؤلفاته تقريراً بالغاً وافرده برسالة مستقلة . وكذا الحافظ بن القيم في اغائة اللهبان واعلام الموقعين " (١)

وجاء في ابن عابدين : " وعن الامامية لا يقع بلفظ الثلاث ولا في حالة الحيض لانه بدعة محرمة . وعن ابن عباس يقع به واحدة وبه " قال ابن اسحاق وطاوس وعكرمة لما في مسلم ان ابن عباس قال كان

«الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من
 «خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر ان الناس قد استعجلوا
 «في امر كان لهم فيه اناة فلو امضينا عليهم فامضاه عليهم . وذهب جمهور
 «الصحابة والتابعين ومن بعدهم من ائمة المسلمين الى انه يقع ثلاثاً . قال
 «في الفتح بعد سوق الاحاديث الدالة عليه: وهذا يعارض ما تقدم . واما
 «امضاء عمر الثلاث عليهم مع عدم مخالفة الصحابة له وعلمه بانها كانت
 «واحدة فلا يمكن الا وقد اطلعوا في الزمان المتأخر على وجود ناسخ او
 «لعلمهم بانتهاء الحكم لذلك لعلمهم باناطته بمعان علموا انتفاءها في الزمن المتأخر .
 «وقول بعض الحنابلة توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مائة الف
 «عين رأته فهل صح لكم عنهم او عن عشر عشرهم القول بوقوع الثلاث
 «باطل . اما او لا فاجماعهم ظاهر لانه لم ينقل عن احد منهم انه خالف عمر
 «حين امضى الثلاث ولا يلزم في نقل الحكم الاجماعي عن مائة الف
 «تسمية كل في مجلد كبير لحكم واحد على انه اجماع سكوتي» (١)
 وقد روى في هذه المسئلة من الاحاديث ما لا يدع شكاً في ان
 الطلاق الثلاث في مجلس واحد لا يقع الا واحدة . جاء في الزيلعي :
 «وقال ابن عباس اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق
 امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال : « ايلعب بكتاب
 الله وانا بين اظهركم » . ذكره القرطبي ورواه النسائي .» (٢) وجاء فيه

(١) صحيفة ٥٧٦ جزء ثاني (٢) صحيفة ١٩٠ جزء ثاني

ايضاً: " وذهب اهل الظاهر وجماعة منهم الشيعة الى ان الطلاق الثلاث
 " جملة لا يقع الا واحدة لما روى عن ابن عباس انه قال: " كان الطلاق
 " الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من
 " خلافة عمر رضي الله عنهم واحدة فامضاه عليهم عمر رضي الله عنه "
 " رواه مسلم والبخاري . وروي ابن اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس انه
 " قال : طلق ركانة بن عبد يزيد زوجته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن
 " عليها حزناً شديداً فسأله عليه الصلاة والسلام: " كيف طلقتهما ؟ " قال:
 " طلقتهما ثلاثاً في مجلس واحد " قال : " انما تلك طلقة فارتجعها " (١)

يرى القاري من هذه العبارات التي بسطناها ليحصل لنفسه منها
 رأياً أن علماء مذهب عظيم كذهب ابن حنبل لم يعولوا على قضاء عمر
 رضي الله عنه بل تمسكوا بنصوص القرآن وسنة النبي ويمكن للامة
 اذا ارادت الاصلاح ان تأخذ بقولهم . لان عمر رضي الله عنه قديين
 لنا سبب قضائه بقوله : " ان الناس قد استعجلوا في امر كان لهم فيه اناة
 فلو امضيناه عليهم " فكأنه اجتهد في جعله عقوبة لردعهم عنه . وكلنا نعلم
 انه لم ينشأ من اجتهاد عمر الا استهتار العامة بلفظ الطلاق الثلاث
 وتهافتهم عليه في محاوراتهم وايمانهم .

بل لم لا يأخذ مرید الاصلاح بمذهب الامامية الذي نقله ابن
 عابدين وهو مذهب الائمة من آل البيت في قولهم كما مر : " ان الطلاق

لا يقع بالطلاق الثلاث ولا في الحيض لانه بدعة محرمة .
وان سمح لي القاري ان ابيدي هنا كل ما اظنه صواباً اقول
لا يمكنني ان افهم ان الطلاق يقع بكلمة لمجرد التلفظ بها مهما كانت
صريحة . نعم ان الاعمال الشرعية لا تستغنى عن الالفاظ اذ لو حللنا
اي عقد لوجدناه مركباً من ظهور ارادة او مطابقة ارادتين حصل
الاستدلال عليها او عليهما من الفاظ صدرت شفاهياً او بالكتابة
ولذلك فليس الغرض الاستغناء عن الالفاظ . وانما مرادنا ان اللفظ
لا يجب الالتفات اليه في الاعمال الشرعية الا من جهة كونه دليلاً على النية
فينتج من ذلك انه يجب ان يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد
به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتماً وجود نية حقيقية عند الزوج
وارادة واضحة في انه انما يريد الانفصال من زوجته . لا ان يفهم
كما فهمه الفقهاء وصرحوا به في كتبهم ان الطلاق هو التلفظ بحروف
(ط ل ا ق)

والذي يطلع على كتبهم يندهش عند ما يرى اشتغالهم بتأويل
الالفاظ والتفنن في فهم معانيها في ذاتها بقطع النظر عن الاشخاص .
وعندهم متى ذكر اللفظ تم الاثر الشرعي . ولهذا قصروا اجاباتهم جميعها
على الكلمات والحروف وامتلات الكتب بالاشتغال بفهم طَلَّقْتُكَ
وانتِ طَالِقٌ وانتِ مُطَلَّقةٌ وعلى الطلاقِ وطلقتُ رِجْلَكَ او رَأْسَكَ
او عِرْقَكَ وما اشبه ذلك . وصارت المسئلة مسئلة يبحث في اللفظ والتركيب

ربما كان مفيداً للغة والنحو ولكنه لا يفيد مطلقاً علم الفقه بشيء .
 على اننا نظن ان علم الشرائع يقبل اجرائاً اخرى غير تاويل
 الالفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملاً شرعياً يترتب عليه ضياع
 حقوق وانشاء حقوق جديدة وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في
 الاهمية حيث يتعلق به اعظم الحوادث المدنية كالنسب والميراث والنفقة
 والزواج . فلاستخفاف به الى هذا الحد امر يدهش حقيقة كل من له
 الملم ولو سطحي بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم .

ولو ترك فقهاؤنا الاشتغال بالالفاظ وبمخثوا في ماخذ الاحكام
 التي يقررونها وعرفوا تاريخها واسبابها وقارنوا المذاهب بعضها ببعض
 وانتقدوها وبالجملة لو اشتغلوا بعلم الفقه الحقيقي لتبين لهم أن الطلاق لا
 يكون طلاقاً الا اذا كان مصحوباً بنية الانفصال .

ويمكن لناظر ان يجد في كتب الشريعة الاسلامية ما يفيد عدم
 صحة الطلاق اذا فقدت نية الانفصال فقد نقل عن شرح التلقين :
 " ان الرجل لو طلق زوجته بكلمة او كلمات في حال الغضب او النزاع
 لا يقع طلاقه " . ورووا في ذلك احاديث مثل قول علي بن ابي طالب :
 " من فرق بين المرء وزوجته بطلاق الغضب او اللجاج فرق الله بينه
 وبين احبائه يوم القيامة . قاله الرسول عليه السلام " .

نعم ان ناقل هذا القول اجتهد في رده وبالغ في ابطاله . ولكن مرید
 الاصلاح له أن يبحث في كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء

مهما كانت خصوصاً اذا كان قصده محو فساد عظيم صار ضرره عاماً .
 نحن في زمان ألف الرجال فيه الهذر بالفاظ الطلاق فجعلوا عصم
 نساءهم كأنها لعب في ايديهم يتصرفون فيها كيف يشاءون ولا يراعون
 للشرع حرمة ولا للعشرة حقاً . فترى الرجل منهم يناقش آخر فيقول
 له ان لم تفعل كذا فزوجتي طالق فيخالفه فيقال وقع الطلاق وانقسمت
 العصمة بين الحالف وزوجته وهي لا تعلم بشيء ما ولا تبغض زوجها
 ولا تود فراقه بل ربما كان الفراق ضربة قاضية عليها . وكذلك الرجل
 ربما كان يحب زوجته ويألم لفراقها فاذا افترق منها بتلك الكلمة
 التي صدرت منه لا يقصد الانفصال من زوجته وانما يقصد الزام شخص
 آخر بالعمل الذي كان يريد ان كان الطلاق على غيرنية منه .

رب رجل يناقش زوجته في بعض شؤون البيت فيرد على لسانه في
 وقت الغضب الحلف بالطلاق من باب التخويف والتهديد وعلى غير
 قصد منه لهدم العصمة فيقال ايضاً وقع الطلاق ويعقبه ايضاً ما سبق
 ذكره من البلاء الذي ينزل على الزوجين .

ورب فلاح يرتكب جريمة السرقة مثلاً فيسأله العمدة او مأمور
 المركز عما وقع منه فينكر فيستحلفه بالطلاق فيحلف انه ما سرق والحال
 انه سرق فيقال كذلك وقع الطلاق وهو لم يقصد بيمينه الا تبرئة نفسه
 ولم يخطر بباله عند الحلف انه مباغض لزوجته كاره لعشرتها .
 فلم لا يجوز مع ظهور الفساد في الاخلاق والضعف في العقول

وعدم المبالاة بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من ان الاستشهاد شرط في صحة الطلاق كما هو شرط في صحة الزواج كما ذكره الطبرسي وكما تشير اليه الآية الواردة في سورة الطلاق حيث جاء في آخرها:

«وأشهدوا ذوي عدل منكم»؟

أليس هذا أمراً صريحاً بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامسك وفراق؟ أليس قصد الشارع ان يكون للطلاق واقعة حال مشهورة لدى العموم ليسهل اثباته؟ لم لا نقرر أن وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحاً فيمتنع بهذه الطريقة هذا النوع الكثير الوقوع من الطلاق الذي يقع الان بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضب؟ نظن أن في الاخذ بهذا الحكم موافقة لآية من كتاب الله ورعاية لمصلحة الناس . وما يدرينا ان الله سبحانه وتعالى قد اطلع على ما تصل اليه الامة في زمان كزماننا هذا فانزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاماً لنا نرجع اليها عند مسيس الحاجة كما هو شأننا اليوم .

بل ان ارادت الحكومة أن تفعل خيراً للامة فعليها ان تضع نظاماً

للطلاق على الوجه الآتي :

المادة الاولى

كل زوج يريد ان يطلق زوجته فعليه ان يحضر امام القاضي الشرعي او المأذون الذي يقيم في دائرة اختصاصه ويخبره بالشقاق الذي

بينه وبين زوجته

« المادة الثانية »

يجب على القاضي او المأذون ان يرشد الزوج الى ما ورد في الكتاب والسنة مما يدل على ان الطلاق ممقوت عند الله وينصحه و بين له تبعة الامر الذي سيقدم عليه و يأمره ان يتروى مدة اسبوع .

« المادة الثالثة »

اذا اصر الزوج بعد مضي الاسبوع على نية الطلاق فعلى القاضي او المأذون ان يبعث حكماً من اهل الزوج و حكماً من اهل الزوجة او عدلين من الاجانب ان لم يكن لهما اقارب ليصلحا بينهما .

« المادة الرابعة »

اذا لم ينجح الحكمان في الاصلاح بين الزوجين فعليهما ان يقدما تقريراً للقاضي او المأذون وعند ذلك يأذن القاضي او المأذون للزوج في الطلاق

« المادة الخامسة »

لا يصح الطلاق الا اذا وقع امام القاضي او المأذون و بحضور شاهدين ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية .

والذي يتأمل في الآيات التي سبق ذكرها في الاستشهاد و التحكيم يرى ان نظاماً مثل هذا ينطبق على مقاصد الشريعة ولا يخالفها في شيء .
وليس لمعترض ان يحتج بان نظاماً مثل هذا يسلب الزوج حقه في

الطلاق لان حق الزوج في الطلاق باق على ما هو عليه الآن . فهو الذي يملك عصمة الزواج واسباب الفراق لا تزال متروكة لتقديره . وغاية ما في الامر اننا اشترطنا ان يسبق الطلاق تحكيم الحكيم ونصيحة القاضي . وليس في هذا تعد على حق من حقوق الزوج وانما هو وسيلة للتروي والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة واولادها بل ولمصلحة الزوج نفسه حيث نرى كثيراً من الأزواج يأسفون على وقوع الطلاق منهم على غير روية ثم يضطرون الى استعمال الحيل الدنيئة كالمستحل مثلاً لمداواة طيشهم . الا يرى افاضل الفقهاء ان مثل هذه الطريقة البسيطة تترتب عليها منفعة عظيمة هي تقليل عدد الطلاق فضلاً عما فيها من اتباع اوامر الله وتنفيذ حكم مهم مثل حكم التحكيم المنصوص عنه في الآية التي ذكرناها واتباع امر شرعي بقي معطلاً الى الآن حيث لم نسمع باجرائه يوماً خصوصاً في امة كامتنا بلغ امرها من فساد الاخلاق والطيش الى حد ان الرجل يحلف بالطلاق وهو يأكل ويشرب ويمشي ويضحك ويتشاجر ويسكر وامرأة جالسة في بيتها لا تعلم شيئاً مما جرى في الخارج بينه وبين غيره .

دلت احصائية الطلاق عن مدينة القاهرة في مدة الثماني عشرة سنة الاخيرة على أن كل اربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط . واليك بيانها بالتفصيل :

طلاق	زواج	سنة
٦٩٠٢	١٣٦٠١	١٢٩٨
٤١٥٢	٤٩٠٠	١٢٩٩
٤٦٤٨	٤٣٥٠	١٣٠٠
٤٠٠٠	٣٤٠٠	١٣٠١
٥٢٥٠	٤٧٠٠	١٣٠٢
٥٥٠٠	٤٧٤٩	١٣٠٣
٤٦٩٨	٤٨٥٠	١٣٠٤
٥٣٥٠	٤٧٤٩	١٣٠٥
٥٨٥٠	٥٠٠٠	١٣٠٦
٤٧٠٠	٥٧٠٠	١٣٠٧
٥٩٠٠	٦٧٥٠	١٣٠٨
٥٥٤٨	٦٩٠٠	١٣٠٩
٥٨٤٧	٧١٠٠	١٣١٠
٥٢٨١	٧٤٠٠	١٣١١
٤٦٥٠	٨٢٥٠	١٣١٢
٤٦٠٠	١٤٢٥٠	١٣١٣
٤٣٠٠	٨١٥٠	١٣١٤
٤٠٠٠	٨١٤٨	١٣١٥

واذكر هنا احصائية اخرى عمومية عن عدد الطلاق والزواج الذي
حصل في عموم القطر المصري في سنة ١٨٩٨ :

سنة	زواج	طلاق
١٨٩٨	١٢٠٠٠٠	٣٣٠٠٠

ومنها يظهر ان كل اربع زوجات تطلق منهن واحدة وتبقى ثلاث
وهذه النتيجة وإن كانت احسن من الاولى بسبب انها تشمل سكان
الارياف الذين لا يطلقون مثل اهل مصر الا أن كلاهما من اقوى
الحجج على اضمحلال حال العائلات عندنا وسهولة تهديم بنائها .

ومن الغني عن البيان ان المرأة اذا ترقت وشعرت بجميع ما لها
من الحقوق فانها لا تقبل ان تعامل بطرق القسوة والاهانة التي تعامل بها
وهي جاهلة . وعند ذلك يحس الرجال انفسهم بانه ليس من اللائق
بهم ان يستعملوا حق الطلاق الذي وكله الله بامانتهم الا عند الضرورة
التي شرع الطلاق لاجلها / فترية النساء مما يساعد على اصلاح
اخلاقنا وتأديب السنننا . فان الرجل يحتقر المرأة الجاهلة ولكنه يشعر
رغماً عن ارادته باحترام المرأة اذا وجد منها عقلاً ومعرفةً وعلواً في الاخلاق
فيعف لسانه عن ذكر ما لا يليق بها ويؤدي لها حقوقها .

ولكن لا يجمل بنا ان نتظر ذلك الزمان الذي يبلغ فيه النساء

(١) هذه الاحصائية استخرجها من دفاتر المحاكم الشرعية حضرة عامر افندي
اسماعيل الموظف بنظارة الحقاينة والتمتدب الآن بالمحكمة الشرعية الكبرى

بالتربية والتهديب ما يميلاً قلوب الرجال من توقيهين واحترامهن . بل
يجب على كل من يهتم بشأن امته ان ينظر في الطرق التي تخفف من
مضار الطلاق الى ان يأذن الله بتلك الغاية التي هي منتهى كل غاية .
وقد بينا ان مجموع المذاهب الاسلامية قد حوى من الاحكام ما يساعد
على وضع حدود تقف عندها العامة وتكون مراعاتها من الوسائل الى
تقدمنا في طريق الصلاح . واول ما يكون من اثرها ان لا تجرد المفسد
سبيلاً من الشرع الى ظهورها فبذلك يكمل نظام العائلة وتعيش المرأة
في طمأنينة وراحة بال ولا تكون في كل آن مهددة بفقد مكانتها من
العائلة بسبب وبلا سبب .

ولكن لنا ان نلاحظ انه مهما ضيقنا حدود الطلاق فلا يمكن ان
تنال المرأة ما تستحق من الاعتبار والكرامة الا اذا منحت حق الطلاق :
ومن حسن الحظ ان شريعتنا النفيسة لا تعوقنا في شيء مما نراه لازماً
لتقدم المرأة . والوصول الى منح المرأة حق الطلاق يكون باحدى
طريقتين : الطريقة الاولى ان يجري العمل بمذهب غير مذهب الحنفية
الذي حرم المرأة في كل حال من حق الطلاق حيث قال الفقهاء من
اهله : " ان الطلاق منع عن النساء لاختصاصهن بنقصان العقل
ونقصان الدين وغلبة الهوى " . مع ان هذه الاسباب باطلة لان ذلك ان
كان حال المرأة في الماضي فلا يمكن ان يكون حالها في المستقبل ولان كثيراً
من الرجال احط من النساء في نقصان الدين والعقل وغلبة الهوى .

واستدل على ذلك بملاحظة ووردت على عند اطلاعي على احصائية الطلاق في فرنسا فقد رأيت انه في سنة ١٨٩٥ حكمت المحاكم الفرنسية بالطلاق في ٩٧٨٥ قضية منها سبعة آلاف تقريباً حكم فيها بالحق للنساء حيث ثبت امام المحاكم ان العيب كان من الرجال .

ولا يصح في الحق ان شريعة سمحاء عادلة كشريعتنا تسلب المرأة جميع الوسائل التي تبيح لها التخلص من زوج لا تستطيع المعيشة معه كان كان شريراً او من ارباب الجرائم او فاسقاً او غير ذلك مما لا يمكن معه لا امرأة سليمة الذوق والاخلاق ان ترضى بعشرته .

وقد وفي مذهب الامام مالك للمرأة بحقها في ذلك وقرر ان لها ان ترفع امرها الى القاضي في كل حالة يصل لها من الرجل ضرر . جاء في كتاب البهجة في شرح التحفة لابن الحسن التسولي ما يأتي :
 " ان الزوجة التي في العصمة اذا اثبتت ضرر زوجها بها بشيء من الوجوه المنقمة والحال انها لم يكن لها بالضرر شرط في عقد النكاح من انه " ان اضربها فامرها بيدها فليل لها ان تطلق نفسها بعد ثبوت الضرر " عند الحاكم من غير ان تستأذنه في ايقاع الطلاق المذكور اي لا يتوقف " تطلقها نفسها على اذنه لها فيه وان كان ثبوت الضرر لا يكون الا " عنده كما ان الطلاق المشترط في عقد النكاح اي المعلق على وجود ضررها " لها ان توقعه ايضاً بعد ثبوته بغير اذنه وظاهره اتفاقاً . وقيل حيث " لم يكن لها شرط به لها ان توقع الطلاق ايضاً لكن بعد رفعها اياه للحاكم

” وبعد ان يزجره القاضي بما يقتضيه اجتهاده من ضرب او سجن او تويخ
 ” ونحو ذلك ولم يرجع عن اضرارها • ولا تطلق نفسها قبل الرفع والزجر •
 ” ومنهم من قوله ان الطلاق بيد الحاكم فهو الذي يتولى ايقاعه ان
 ” طلبته الزوجة وامتنع منه الزوج وان شاء الحاكم امرها ان توقعه • فعلى
 ” هذا القول لا بد ان يوقعه الحاكم او يأمرها به فتوقعه • واذا امرها
 ” به فهي نائبة عنه في الحقيقة كما انه هو نائب عن الزوج شرعاً حيث
 ” امتنع منه • وروي ابو زيد عن ابن القاسم انها توقع الطلاق دون
 ” امر الامام • قال بعض الموثقين: والاول اصبوب “

✓ الطريقة الثانية — أن يستمر العمل على مذهب ابي حنيفة ولكن
 تشترط كل امرأة تتزوج ان يكون لها الحق في ان تطلق نفسها متى شاءت
 او تحت شرط من الشروط : وهو شرط مقبول في جميع المذاهب
 وهذه الطريقة افضل من الأولى من بعض الوجوه • فان من المضار
 الحقيقية التي تنفق كل النساء في التحفظ منها وبذل المستطاع في انقائها
 ما لا يكون سبباً يسمح للقاضي ان يحكم بالطلاق في مذهب مالك وذلك
 كتزوج الرجل بامرأة اخرى وزوجته الاولى في عصمته • فان الزوجة الأولى
 لو رفعت شكواها الى القاضي وطلبت منه ان يطلقها لم يجز للقاضي
 ان يجيب طلبها فلو اشترطت ان تطلق نفسها متى شاءت او عند ما يتزوج
 زوجها عليها كان الامر بيدها • ولكن العمل على الطريقة الاولى احكم واحزم
 فان وضع الطلاق تحت سلطة القاضي ادعى الى تضيق دائرته وادنى

الى المحافظة على نظام الزواج .

ولما كان تخويل الطلاق للنساء مما تقتضيه العدالة والانسانية
لشدة الظلم الواقع عليهن من فئة غير قليلة من الرجال لم نتحل ارواحهم
بالوجدانات الانسانية السليمة كان لي الامل الشديد في ان يحرك صوتي
الضعيف هممة كل رجل محب للحق من ابناء وطني خصوصاً من اولياء
الامور الى اغائة هؤلاء الضعيفات المقهورات الصابرات .

خاتمة

تبين للقارئ مما سبق ان ما نريد ادخاله من الاصلاح في حالة النساء ينقسم الى قسمين : قسم يختص بالعادات وطرق المعاملة والترقية . والقسم الثاني يتعلق بدعوة اهل النظر في الشريعة الاسلامية والعارفين باحكامها الى مراعاة حاجات الأمة الاسلامية وضرورتها فيما يختص بالنساء وان لا يقفوا عند تطبيق الاحكام عند قول امام واحد انما كان اجتهاده موافقاً لمصلحة عصره . وأن يدققوا البحث فيما تغير من الاحوال والشؤون فان وجدوا في قول امام ما تتعسر معه المحافظة على كرامة الشرع اقاموا مقامه قول امام آخر يكون في مذهبه ما يسد الحاجة بدون خروج عن اصول الشريعة العامة .

والعمل على تحقيق هذين النوعين من الاصلاح هو كغيره من سائر الاعمال النافعة انما يتم بالعلم والعزيمة :

« اما العلم »

فهو وسيلة الأمة لمعرفة حاجاتها وبه تنتبه اذهان افرادها الى ما هم فيه وما درجوا عليه من الاخلاق والعوائد والكلمات والنقائص بحيث يكونون على شعور دائم باحوالهم وتكون تلك الأمور دائماً موضوع بحثهم . ان من الغفلة بل من اسباب الشقاء ان تكون شؤوننا في حياتنا قائمة بعوائد لانفهم اسبابها ولا ندرك آثارها في احوالنا بل انما نتمسك بها لانها جاءت الينا من سلفنا وورثناها عن تقدمنا وذلك كل ما فيها من الحسن عندنا . مع ان هذا وحده لا يكفي لان يكون سبباً في الاخذ بها ولا في الثبات عليها بل يجب ان نفهم ان لنا مصالح ولن سبتنا مصالح ولنا شؤون ولهم شؤون ولنا حاجات لم تكن لهم وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم وذلك من البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان . فعلياً ان نأخذ من العوائد وان نكسب من الاخلاق ما يلتزم مع مصالحنا فنكون ماكين لمصادر اعمالنا كما يطلب منا العقل والشرع لا أن نكون عبيداً لعاداتنا التي وجدنا عليها آباءنا فيكون مثلنا مثل رجل وجد لباسه ضيقاً فرأى ان يجوع ليهزل ويضعف وينحل حتى يصغر جسمه فيسهه لباسه لا ان يصلح لباسه بتوسعته حتى يتفق مع جسمه .

انالا نجد عقبة في طريقنا الى السعادة اصعب اجتيازاً من شدة

تمسكنا بعادات من سلفنا من غير ان نميز بين تلك العادات صالحها
وطالحها . نعم ان الماضي لا يصح أن يطرح جملة . لكن يجب ان
ينظر فيه بالتبصر والروية لمعرفة ما اظهر من منافع ومضار .

لا ارى اعجب من حالنا هل نعيش للماضي او للمستقبل ؟ هل
نريد ان نتقدم او نريد ان نتأخر ؟ نرى العالم في ثقل مستمر وشؤونه
في تغير دائم ونحن ننظر الى ما يقع فيه من تبدل الاحوال بعين شاخصة
وفكرة حائرة ونفس ذاهلة لا ندري ماذا نصنع ثم ننهزم الى الماضي نلتمس
فيه مخلصاً ونطلب منه عوناً فنرتد دائماً خائبين .

رأينا في هذا القرن حادثة عجيبة اظنها وحيدة في التاريخ . رأينا أمة
بتامها خلعت عوائدها وابطلت رسومها وتخلت عن نظاماتها وقوانينها
وطرحتها وراء ظهرها فقطعت كل وصلة بينها وبين ماضيها الا ما كان متعلقاً
بجامعة شعبها . ثم همت فبنت بناء جديداً مكان البناء القديم فلم يمض
عليها نصف قرن الا وقد شيدت هيكلًا جميلاً على آخر طرز افاده
التمدن فهبت من نومها ونشطت من عقالها وشعرت بان الحياة تدب
في بدنها وتجري في عروقها دماً حاراً قوياً فتياً : تلك هي الاممة اليابانية
صارت تعد اليوم في صف الامم المتمدنة بعد أن قهرت في بضعة ايام
دولة الصين الجسمية التي لم يقللها الا اعجابها بماضيها . أليس في ذلك
عبرة لكل متبصر ؟

لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها اساس في شريعتنا لكان

في ميلنا الى المحافظة عليها ما يشفع لنا . اما وقد برهنا على ان كل ما عرضناه من اوجه الاصلاح يتفق تمام الاتفاق مع احكام الشريعة ومقاصدها فلم يبق لنا عذر في التمسك بها سوى انها قد تقدست بمرور الزمان الطويل واننا غفلنا عن مصالحنا وتدير شؤوننا .

اذا توهم بعض القراء ان ما ورد في كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعاً للفتنة هو من الاحكام الدينية التي لا يجوز تغييرها . فنقول ان هذا الاعتراض مردود بان الاحكام الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الاخلاق ووكلت فهم الجزئيات الى انظار المكلفين ووضعها تحت تصرف اجتهادهم وعلى هذا جري العمل بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بين اصحابه واتباعه .

والما اتسعت خطة الاسلام وكثر اختلاط المسلمين بغيرهم من الامم وعرضت عليهم حاجات وضرورات اقتضت احكاماً ومشروعات جديدة قام المجتهدون بينهم واستنبطوا لهم من اصول الشريعة العامة ما يناسب الوقائع الخاصة ففصلوا ما اجمله القرآن والسنة من الاحكام وفرعوا منها ما يناسب الاحوال والامصار والاعصار . فهم لم يضعوا بذلك شرعاً ولم يضيفوا على الدين شيئاً وانما كان اجتهادهم قاصراً على النظر في الجزئيات وردّها الى كلياتها المقررة في الكتاب والسنة .

الا ترى ان القرآن لم يبين اهم الفروض مثل احكام الصلاة

ومواقبتها وركوعها وسجودها ولا مقادير الزكاة واوقاتها ولا مناسك الحج . وان السنة هي التي رسمت جميع تلك الاحكام مجملة ثم جاء المجتهدون ففصلوا احكامها وقرروا فروعها ؟

على هذا النمط تألفت شريعتنا : من فروع كلها راجعة الى اصل واحد . فالشريعة الاسلامية انما هي كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت الى تقرير جزئيات الاحكام لما حق لها ان تكون شرعاً عاماً يمكن ان يجد فيه كل زمان وكل امة ما يوافق مصالحها .

فهذه القواعد الكلية التي تحدد اعمالنا بمحدود يجب الانتهاء اليها على حسب ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة هي التي لا تقبل التغيير والتبديل . اما الاحكام المبنية على ما يجري من العوائد والمعاملات فهي قابلة للتغيير على حسب الاحوال والازمان وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي ان لا يخل هذا التغيير باصل من اصولها العامة . فكشف الرأس مثلاً قبيح في البلاد الشرقية لانه كان معتبراً في العادة محلاً بالمروءة ولهذا السبب اعتبر عند اهل الشرق قادحاً في العدالة . ولكنه غير قبيح في البلاد الغربية فلا يكون عندهم قادحاً . فالحكم الشرعي يجب ان يختلف باختلاف ذلك . وجواز اثبات التصرفات الشرعية بالشهادة لم يكن الغرض منه معنى مخصوصاً في اشخاص الشهود وانما الغرض منه اثبات هذه التصرفات بالطريقة التي وقع الاصطلاح عليها ولم يكن غيرها مألوفاً . فاذا تغيرت الاحوال وتبدل الاصطلاح واعتاد الناس على

التعامل فيما بينهم بالكتابة تغير كذلك الحكم الشرعي وتحولت طريقة
 الاثبات من الشهادة الى الكتابة . واذا قيل باستجاب ستر المرأة وجهها
 عن الرجال لخوف الفتنة وعدم اقتضاء الحال لكشفه في زمان كان
 هناك محل لخوف الفتنة ولا نقضي ضرورات الحياة على المرأة بكشف
 وجهها فلا مانع من ان يتغير هذا الاستحسان الى ضده في زمان آخر .
 ذلك لان اختلاف الاحكام باختلاف العوائد والمصالح ليس في الحقيقة
 اختلافاً في الشريعة وانما هو رد لأحكام الجزئيات الى اصولها الكلية
 ورجوع بها الى مقاصدها الشرعية .

تبين من ذلك ان لنا في ما كنا وملبسنا ومشربنا وجميع شؤون
 حياتنا العمومية والخصوصية الحق في ان نتخير ما يليق بنا ويتفق مع
 مصالحنا بشرط ان لا نخرج عن تلك الحدود العامة التي اشرفنا اليها .
 اما التزامنا بما وجدنا عليه اباؤنا وعدم الخروج عن الدائرة التي
 رسموها لانفسهم فهو القضاء على الامة الاسلامية بمجمود القرائح وثقييد
 الارجل وغل الايدي عن كل عمل تحفظ به كونها وتدافع به عن
 وجودها وتتقدم به في سبيل سعادتها . بل قد يكون قضاء عليها
 بالمحو والاضمحلال .

٢

« واما العزيمة »

فهي حث الارادة الى كل خير ارشدنا اليه العلم والعرفان والفرار

بها من كل شر دلنا عليه البحث والتنقيب . العزيمة هي اشرف قوى
الانسان واجلها واعظمها اثرًا في اعماله . فالتعليم والتهديب وسعة العقل
والاميال الحسنة والغرائز الطيبة كل ذلك لا يفيد فائدة تذكر عند
شخص مجرد عن العزيمة : ولهذا كان ضعف الارادة اكبر عيب في الانسان
نرى الكثير من اهل بلادنا يستحسنون فكرة او عملاً ولكنهم
لا يجدون من انفسهم همة كافية لخدمة تلك الفكرة او ذلك العمل
ويكفي انهم يعلمون ان بعض الناس لا يتفق معهم في رأيهم لتلاشي
ارادتهم وسقوطها . اما اذا علموا انه ربما يمسه ضرر ما من ناحية ذلك
العمل رأيتهم يفرون منه فراراً .

ان كان لنا امل في نجاح مانعده صالحاً لنا فانما يكون في الرجل
الذي يجب ان يعرف ويبحث ليعرف ويعرف بالفعل ما تحتاج اليه
بلادته وله عزيمة تدفعه الى العمل في جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها
بالوسائل التي تؤدى الى المطلوب بطبيعتها طال الزمان او قصر .

فعلى مثل هذا الرجل الكامل نعرض طريقة للعمل فيما نحن بصدد
بعد العلم بان الخطوة الاولى في كل شيء هي من اصعب الامور لان
الانتقاد جميعه ينصب على من يتبدى في امر خطير . ومن النادر ان يوجد
شخص يحس من نفسه قوة كافية لمقاومة تيار الانتقاد العام .

فاحسن طريقة اراها لتنفيذ ما عرضناه في هذا الكتاب هي ان
تؤسس جمعية يدخل فيها من الآباء من يريد تربية بناته على الطريقة

التي شرحناها وان يختار لتلك الجمعية رئيس من كبار المصريين (ولا
 اظن ان الطبقات العليا من اهل بلادنا تخلو من واحد منهم) وان يكون
 عمل هذه الجمعية في امرين : الاول التعاون على تربية البنات على هذه
 القاعدة الجديدة . والثاني السعي لدى الحكومة في اصدار القوانين التي
 تضمن للمرأة حقوقها بشرط ان لا تخرج في شيء من ذلك عن الحدود
 الشرعية ولكن بدون ان تثقيد بمذهب من المذاهب بل تأخذ عن كل
 منها ما هو موافق لحاجتنا الحاضرة وضرورات عصرنا كما حصل مثل
 ذلك في وضع المجلة العثمانية وكما حصل عندنا مراراً في بعض المسائل
 المتعلقة بالمحاكم الشرعية . فاذا تشكلت هذه الجمعية يخف اللوم عن كل
 واحد من اعضائها فان قوة الانتقاد تأتي متوزعة على جملة من الافراد
 فيسهل احتمالها ومقاومتها فلا يكون في شدة الانتقاد ما يبعث على فتور
 الهمة وضعف الارادة عن العمل . لان في قوة الجماعة من الاقتدار
 على المدافعة ما ليس في قوة الفرد الواحد : والاجتماع هو القوة الحقيقية
 التي بدونها لا ينجح شيء .

نرى حكومتنا تهتم بمسئلة صغيرة كمسئلة الشفعة فتعين لها لجنة
 شرعية لتبحث في المذاهب وتجمع ما تراه منها مناسباً من الاحكام .
 ونرى كثيراً من المصريين يدخلون في كثير من الجمعيات مثل جمعية
 الرفق بالحيوان ومعارض الازهار وغيرها ولا يضمنون بوقتهم ولا بالملم
 في تعضيد مشروع من هذه المشروعات يعتقدون صلاحيته . ونرى

الجرائد تنشر بين طبقات الامة من المعارف ما يساعد على تربيته
وتهذيبها وقد آن الوقت الذي يجب فيه على الحكومة وعقلاء الامة
وارباب الاقلام ان يوجهوا التفاتهم الى حال المرأة المصرية فاني لا ارى
مسئلة تمس بحياة الامة اكثر منها ولا احق منها بان تكون موضوعاً
لنظرهم ومجالاً لآرائهم وافكارهم .

فهرست

صفحة

فاتحة الناشر	
مقدمة المؤلف	٢
تمهيد	٥
تربية المرأة - وظيفه المرأة في الرهبنة الاجتماعية - وظيفها في العائلة	١٧ ✓
حجاب النساء - الحجاب من الحجره الدينية - الحجاب من الحجره الاجتماعية	٥٣ ✓
المرأة والامة	٩٣
العائلة - الزواج - تعدد الزوجات - الطلاق	١١٤ ✓
خاتمة - العلم - العزيمه	١٥٣
الفهرست	١٦٢

114505915

B1290451X

17 DEC 2002

